الإبانة

عن طرق القاصدين والكشف عن مناهج السالكين والتوفّر إلى عبادة ربّ العالمين



ابن فورك

أبو بكر محمّد بن حسن الإسفهاني النيسابوري
رحمة اللّه عليه

[مقدمة المؤلف]

بسم اللّه الرحمن الرحيم

إنّ أحقّ ما افتَتَح به مُفتَتِحٌ، وأوْلى ما ابتدأ به مُبتدئٌ، ذِكرُ اللّه عزّ وجلّ بمحامده، والثناء بما هو أهله؛ استدامة لنعمائه، واستزادة لآلائه، واستعانة على أداء طاعته، إنه الحميد المجيد.

والحمد لله الحميد المجيد، المبدئ المعيد، الفعّال لما يريد، الذي تخير بفضله ورحمته عباده المصطفين، وتحبيهم بكرامته، وفنون عباداته، وأنواع لطفه وبرّه وسعاداته، تفضلا منه، وجُودًا من غير حقّ سبق، ولا أمر وجب لهم، ويصرف ذلك وشبهه عمن أراد من خلقه بملكه وقدرته وحكمته وسلطانه[1] هلاكَه؛ ليعلم العالمون أنه في نعمته متفضل، في سابق تدبيره حكيم عادل عمّا هو بابتداء فضله، رحيم ماجد، بفضله اهتدى المهتدون، وبرحمته نجا العاصون، وبرعايته سبق السابقون والمقربون.

نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونتوكل عليه، ونشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، الذي لم يزل أوّلا باقيا دائما سرمدا، واحدا أحدا غنيا عن الشركاء بريّا من النظراء، تعالى عن كل نقص وآفة وعيب وحاجة.

---

١ وفي الأصل بسلطانه.

ونشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله، وصفيه ونبيه وحبيبه، وخيرته من خلقه ووليّه، أرسله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون. صلى الله تعالى عليه خاصّة، وعلى النبيين عامة، وعلى المرسلين والمقربين والمؤمنين.

أما بعد؛ فإن أحمدَ ما يستعان به في معرفة طرق التذكير والوعظ، والوقوف على معاني إشارات المتكلمين في هذا العلم، والتنبيه على مقاصدهم؛ لتفهم معانِيهم على ما فيها، حتى يقع التصريف في هذا الباب على حسب موضوعاتهم وقواعدهم، والوقوف على مبادئ ما أشاروا إليه، ومهدوا من أصولهم التي بنوا عليها؛ لترتب كل [٢أ] نوع في بابه على ما يليق به، ولا يخلطه ببابه غيره؛ ليحصل فيه حكم الانتظام والاتساق. فمن ذلك الوقوف على معاني أصول الأبواب التي تدور عليها جمل الكلام في هذا الباب، وذلك على الترتيب الذي نذكره.

ونقدم قبل ذكر أبوابه تراجم الأبواب التي يتضمنها.

فمن ذلك:

الكلام في معنى التوبة والإنابة.

والكلام في معنى الزهد والتزهد.

والكلام في معنى الورع والتورع.

والكلام في معنى الصدق وحقيقته.

والكلام في معنى الصبر والتصبّر ومعنى الشكر والحمد.

والكلام في معنى الرضا، وتتميم ذلك إلى رضا الله تعالى عن العبد، ورضا العبد عن الله تعالى.

والكلام في معنى الدنيا وبيان المحمود والمذموم منها.

والكلام في معنى الفقر والغنى وإبانة الشرف منهما.

والكلام في معنى الإخلاص وصفته.

والكلام في معنى الرياء والشرك والنفاق والمداهنة والإعجاب.

٥ والكلام في معنى المعرفة والتوحيد وصفة ورود المعرفة إلى قلوب العارفين.

والكلام في صفة طهارة القلوب.

والكلام في معنى الحكمة وبيانها.

والكلام في معنى الحزن وصفته، وفي معنى الشجى ودلائله.

والكلام في معنى المحبّة والحبّ، وتقسيم ذلك إلى محبة الله تعالى للعبد،[١]

١٠ ومحبّة العبد لله تعالى.

والكلام في ذكر الحق والحقيقة.

والكلام في معنى التقوى وحقيقتها وأقسامها.

والكلام في معنى الذكر وحقيقته وأقسامه.

والكلام في معنى التوكّل وحقيقته وذكر المتوكّل.

١٥ والكلام في معنى السخاء والجود.

والكلام في معنى الإرادة، والفرق بين المريد والمراد.

والكلام في ذكر الخوف وأنواعه، كالرهبة والخشية والهيبة والوجل، وأقسام أحوال الخائفين.

والكلام في معنى الرجاء، وذكر منزلته من الخوف، وصفة أحوال الراجين.

٢٠ والكلام في معنى المعرفة والعلم واليقين.

---

١ وفي الأصل العبد.

والكلام في معنى حسن الظنّ بالله تعالى، ومراقبته ومشاهدته، والفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين.

ومعنى التفريد والتجريد والفناء والبقاء.

والكلام في معنى معاملات المحبّين ومقاماتهم، وخوف المحبّ وما وجهه.

٥ والكلام في معنى المراقبة والحياء، وما يتعلّق به من الكلام في طرق الأخلاق.

والكلام في معنى [٢ب] معرفة الأُنس بالله تعالى وعلامته.

والكلام في معنى التواضع وإبانة مخرجه.

والكلام في معنى العقل وصفته، وتقسيم حياة القلوب، وما تحيا[1] به، وذكر

١٠ أقسام الحياة، ومعاني ذكر الموت وأقسامه، والبيان عن معنى الفتوة والمروءة[2]،

والكلام في معنى الدعاء والاستدعاء.

والكلام في فائدة الفكر والاعتبار، وصفة العارف في السيرة والأخلاق، وثمرة المعرفة، وتوحيد أهلها.

ثم ذكر المقامات، وكيفية ترتيبها، وكيف الترقي من البداية إلى النهاية من

١٥ جميع الأحوال، والفرق بين الداخل الكاذب والداخل الصادق، وإبانة شرف العارف على الزاهد، ويستعان في معرفة هذه الأبواب بمعاني عبارات أهلها والوقوف على مقاصدهم.

١ وفي الأصل يحيا.

٢ وفي الأصل المروّة.

باب التوبة والإنابة

قال بعضهم: الندَم على ما مضى، والعكوف على ما صفا.

وقال بعضهم: التوبة النُّقلة مما نهى الله تعالى إلى ما أمر الله تعالى.

وقال بعضهم: التوبة نسيان ما فات بذكر ما هو آت.

٥ وقال بعضهم: خمود القلب عند ذكر الذنوب.

وقال بعضهم: التوبة الندم على ما فات[١]، وإصلاح ما هو آت.

وقال بعضهم: التوبة صدق اللّجاء، والكد على الرجاء.

وقال بعضهم: التوبة هي التوبة من التوبة بإسقاط رؤية التوبة.

وقال بعضهم: التوبة الرجوع إلى حتم من المفروضات، والانتهاء عما نهى

١٠ عنه من المكروهات.

و أما الإنابة فقال بعضهم: هي الرجوع إلى الله تعالى في كل خطرة ولمحة، ويكون الرجوع منه إليه أولاً بالتوبة من غيره.

وقال بعضهم: الإنابة هي الرجوع منه إليه حذرا، ومن غيره إليه رغبا، ومن كل تعليق إليه رهبا.

١٥ وقال بعضهم: الإنابة الفرار من الخلق إلى الحقّ.

وقال بعضهم: الإنابة مشاهدة الحضرة والأسرار، والوقوف على الطاعات بالأفكار، ومطالعة الحق بالهمم والأذكار.

وقال بعضهم: الإنابة اشتغال الكل بالكل عن الكل.

---

١ وفي الأصل مات.

باب الزهد وذكر معناه

فأما الكلام في الزهد وحقيقته: فمنهم من قال: الزهد ترك الفضول، والإقبال على الله تعالى بالمأمول.

وقال بعضهم: الزهد كف النفس عن هواها، والإقبال على من يراها، وكوّنها، وبرأها.

٥ وقال بعضهم: الزهد ترك الراحة طلبا للراحة.

وقال بعضهم: الزهد تجريد القلب عن رؤية الجاه في الأنام، وأخذ [٣أ] حظ النفس للضرورة لا على التمام.

وقال بعضهم: الزهد ترك الدار بما فيها، وتعلق القلب بباريها.

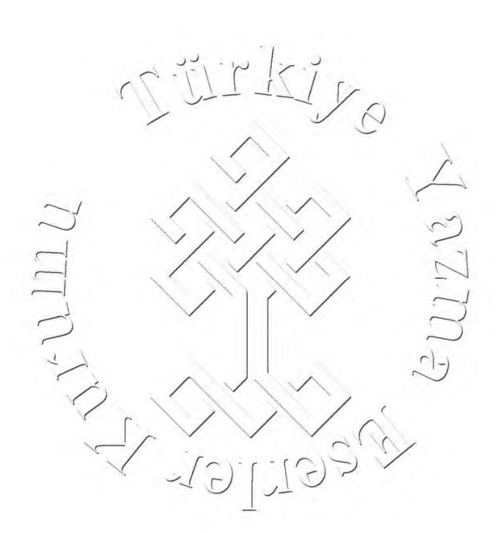
وقال آخر: الزهد خلو الأيدي من الأغراض، وحفظ القلب من الاعتراض.

١٠ وقال يحيى بن معاذ الرازي[١] رحمه الله: الخير كله في الزهد، والزهد موضوع على ثلاثة أركان: الانقطاع عن الخلق، ورفض العلائق، وسياسة البدن؛ ففيها سقوط همّ المعاش، وسقوط همّ الشهوات، وفي الانقطاع عن الخلق وجود الأنس بالله تعالى.

---

١ هو أبو بكر زكريا الواعظ، الإمام الحافظ، كان من كبار المشايخ، وله كلام جيد ومواعظ مشهورة، توفي بنيسابور سنة ٢٥٨. مصادر ترجمته: طبقات الصوفية للسلمي، القاهرة، ص ١٠٧؛ الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري، القاهرة، ١/١٠١؛ حلية الأولياء لأبي نعيم الإسفهاني، بيروت، ١٠/٥١؛ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، بيروت، ١٤/٢٠٨؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٣/١٥.

وقال الجنيد[1] رحمه اللّه: أبَى اللّه أن يتجلى بحقيقة عزّه لقلب متعلق بسبب من أسباب الدنيا.



١ هو أبو القاسم الجنيد بن النهاوندي الأصل، البغدادي القواريري، سيد الطائفة وشيخ العارفين وقدوة السائرين وعلم الأولياء في زمانه، ولد ببغداد بعد العشرين ومائتين، وتوفي فيها، ودفن عند قبر خاله السري في مقبرة الشونيزية، وهي مقبرة الصوفية التي تسمى اليوم بمقبرة الشيخ جنيد غربي بغداد، وكان ممن برز في العلم والعمل، كان فقيها على مذهب أبي ثور، وكان يفتي في حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة. صحب خاله السري والحارث المحاسبي. مصادر ترجمته: طبقات الصوفية للسلمي، ص ١٥٥؛ الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري، ١/١١٦؛ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٧/٢٤١؛ الأنساب للسمعاني، بيروت، ٤/٥٥٦؛ سير اعلام النبلاء للذهبي، ١٤/٦٦.

باب الورع

وأما معنى الورع فهو التنفير عن الإباحات، والتخلّص عن الشهوات.

وقال آخر: الورع الوقوف عن الشبهات؛ لخوف إتيان المحظورات.

وقال بعضهم: الورع محاسبة النفس عند كل خطرة ونفَس.

وقال آخر: الورع حفظ اللسان عن التأويل، واتّباع الشرع في التنزيل.

وقال آخر: الورع كفّ القلب عن الجولان إلا في ملكوت الرحمن.

وقال آخر: الورع سلامة الصدر في موافقة البرّ.

وقال آخر: الورع هو كف عما أبيح له؛ حذرا من أخذ ما شُبّه له.

وقال ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك.»[1]

وقال ﷺ: «اِستَفْتِ قلبك، ولو أفتاك المفتون.»[2]

وقال: «الإثم ما حاك[3] في صدرك.»[4]

وقال قوم: الورع وقوف القلب عند هجوم العقل حتى يعرف بين الحق والباطل.

---

١ أخرجه البخاري في البيوع، ٣؛ والنسائي في آداب القضاة، ١١؛ والترمذي في القيامة، ٦؛ والدارمي في البيوع، ٢؛ والحاكم في المستدرك، ٢/١٣؛ ٤/٩٩.

٢ أخرجه أحمد في مسنده، ٤/١٩٤، ٢٢٧؛ وأبو نعيم في الحلية، ٧/١٧٢؛ واورده الهيثمي في مجمع الزوائد، ١/١٧٥-١٧٦، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

٣ وفي الأصل جاء.

٤ أخرجه أحمد في مسنده، ٤/١٩٤، ٢٢٧؛ وأبو نعيم في الحلية، ٧/١٧٢؛ واورده الهيثمي في مجمع الزوائد، ١/١٧٥-١٧٦، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

وقال بعضهم: هو إسقاط ما جاء في القلب مع ترك ما اشتبه عليك.

قال المحاسبي[١]: وجميع الورع كله في ترك ما يريب إلى ما لا يريب.

قال: ومخرج الورع من التفتيش عن مثاقيل الذر في ظاهرها، وترك حزازات القلوب، والذي يزيد في قدر الورع قدر الخوف، وذلك يعلم بمشاهدة القلوب لسطوات الله تعالى ونقمه، والذي يزيد في قدره قدر لزوم القلب المعرفة بما لله فيه، وعلى قدره يهيج خوفه.

روى عمران بن الحصين عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: عبدي أدّ ما افترضت عليك تكن من أعبد الناس، وانته عما نهيتُك تكن من أورع الناس، واقنع بما رزقتك تكن من أغنى الناس.»[٢]

وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: «إنّكم لو صُمْتُم حتى تكونوا كالأوتاد، وصليتم حتى تكونوا كالحنايا ما نفعكم إلا بورع صادق.»

---

١ هو الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد اللّه البغدادي، أحد الأئمة المشهورين، سمي بالمحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه، كان إماما في الفقه والتصوف والحديث والكلام، روى عنه أبو العباس بن مسروق الطوسي، وأبو القاسم الجنيد وآخرون، وله كتب كثيرة مشهورة في الزهد، والرد على المعتزلة والرافضة، توفي سنة ٢٤٣. ومن كتبه التي طبعت: الرعاية لحقوق اللّه، والتوهم، والعقل، ورسالة المسترشدين وغيرها، وقال السمعاني في الأنساب، ٢٠٧/٥: له كتب كثيرة في الزهد وفي أصول الديانات والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة، وكتبه كثيرة الفوائد، جمة المنافع. مصادر ترجمته: حلية الأولياء لأبي نعيم الإسفهاني، ٧٣/١٠، الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري، ٧٨/١؛ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢١١/٨؛ تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي بيروت، ٢٠٨/٥، سير أعلام النبلاء للذهبي، ١١٠/١٢، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ٢٧٥/٢.

٢ لم نعثر على تخريج لهذا الحديث القدسيّ المنسوب للنبي ﷺ عن اللّه.

وقال الفضيل[1]: ”خمس من علامات السعادة: اليقين في القلب، والورع في الدين، والزهد في الدنيا، والحياء، والخشية.“

[٣ب] وقيل ليونس بن عبيد: ما غاية الورع؟ قال: الخروج عن كل شبهة، ومحاسبة النفس مع كل طَرفة.

وقال ابن المبارك: أشد الورع في اللسان.

قال النبي ﷺ لأبي ذرّ: «لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكفّ عن محارم الله تعالى، ولا حسب كحسن الخلق.»[2]

وقال بعضهم: أصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقى، وأصل التقى محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء، وأصل الخوف والرجاء معرفة الوعد والوعيد، ومعرفة الوعد والوعيد ذكر تعظيم الثواب وشديد العقاب، وأصل ذلك العبر والفكر.

وقال بعضهم: التقرب إلى الله تعالى بمنازل ثلاثة: بشدة الفاقة، وهو غاية التقوى، وتجنب الآفة، وهو غاية الورع، وخلع الراحة، وهو غاية العبودية.

---

١ هو أبو على التميمي اليربوعى الخراساني، شيخ الإسلام، الإمام القدوة الثبت، ولد بالخراسان، وقدم الكوفة، ثم انتقل إلى مكة، ونزلها إلى أن مات في أول سنة ١٨٧، وكان محدثا ثقة، سيدا فاضلا، عابدا ورعا. أسند الحديث عن جماعة من التابعين وغيرهم، منهم: الأعمش، ومنصور بن المعتمر، وحصين بن عبد الرحمن وآخرون، وأخذ عنه خلق كثير، ومن أعيانهم: سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، ويحيى بن سعيد القطان، وحسين بن علي الجعفي، وعبد الرحمن بن مهدي، ويحيى بن يحيى النيسابوري ونظائرهم. مصادر ترجمته: حلية الأولياء لأبي نعيم الإسفهاني، ٨٤/٨، سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٢١/٨.

٢ أخرجه ابن ماجة في الزهد، ٢٤؛ والطبراني في المعجم الكبير، ١٥٧/٢؛ والبيهقي في شعب الإيمان، ١٥٧/٤.

باب الكلام في الصدق

أما الكلام في معنى الصدق، فقال قوم: الصدق بلوغ الغاية ببذل المجهود إلى النهاية.

وقال آخر: بذل الموجود لغاية المجهود.

٥ وقال آخر: الصدق الاعتراف بالحق والتجافي عن الخلق.

وقال آخر: الصدق استفراغ الطاعة عن الكدّ والفاقة.

وقال آخر: الصدق قول الله بالله، لا يخالطه مراقبة الرقيبَين: الروح والنفس.

وقال آخر: الصدق اجتماع القول والعمل، من غير مخالطة السر بشيء يفترّ عنه.

وقال: يجب على الصادق أن يكون مطالبا لنفسه بحقائق صدقه. فإن قال فما ١٠ صفة الفترة التي تعرض له؟ قال: هو أن يعرض من داعي الهوى فتستجيب له النفوس، فيستريح إلى الفترة بروح ترك الكدّ والاجتهاد.

وسئل الحارث المحاسبي: من أين يتزايد عليهم الفترة؟ فقال: من قلة ما فاته من الله تعالى، واستقلال عظيم الموهبة منه. فقيل له: من أين يدخل عليه هذا؟ فقال: من قلة العناية، وكثرة التواني. فقيل له: ومن أين يلحقه ذلك؟ قال: ١٥ من اشتغال هموم القلب بأودية الدنيا، وأخذه بالرُّخَص منها، فعندها تميل إلى الفترة، وتستلبه الغفلة، فقيل: فهل لذلك علامة يعرفها القلب؟ قال: نعم، أول الفترة الكسل، فإن كان للرعاية عليه سلطان تلاشى الكسل، وإلاّ تزايد حتى يصير نفورا عن الطاعة.

وقال بعضهم: الصدق ثلاثة: في الأقوال، والأعمال، والأحوال.

فأما الصدق في الأعمال فهو أن يكون موافقة للأقوال. والصدق في الأقوال أن يكون موافقة للأحوال، والصدق في الأحوال أن يكون موافقة [٤أ] للأسرار. والصدق في الأسرار أن يكون موافقا للملك الجبار.

٥ وقال المحاسبي: الصدق صدق النية أولا، ثم صدق اللسان، ثم صدق العمل؛ فأما صدق النية فهو أن يبدو في قلبه خوف عقاب، ورجاء ثواب، لا يريد بذلك غير الله، وأمّا صدق اللسان فهو أن يطلقه إذا قام قام له شاهد من الحق، وإن كان التخلف عن اللفظ وَهنًا، وأما صدق العمل فهو الهجوم على ما عزم عليه من العمل فيتمه بالحرص عليه والانكماش لا يقطعه عنه قاطع.

١٠ وسئل المحاسبي: من أين مخرج الصدق؟ فقال: من المعرفة بأن الله تعالى سميع ويرى، وأن يعلم أنه لا يصدق إلا لمن يعلم أنه يراه ويسمعه. وهو القادر على عقوبته ومثوبته، ويعلم أنه لا ينجيه منه إلا الصدق له، يزداد العبد في أعمال البرّ. قال الله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾[١] فإذا وفق الصدق في القلب لمعرفته بقرب المشاهدة وحرمة المراقبة انسطع لذلك نور انتشر في ١٥ سائر جسده، فأخذ كل جارحة بقسطه.

١ سورة محمّد ٤٧/٢١.

وسئل الحارث عن علامة الصادق، قال: أن لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، لا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره أن يطلع الناس على سيئ عمله؛ فإن كراهيته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصادقين.

٥ وقال سهل[١]: إذا كان العبد صادقا كان قلبه عرش الله تعالى وصدره الكرسي، وإذا كان غير صادق كان قلبه عرش إبليس، وصدره كرسيه.

وقال بعضهم: وهو إبراهيم بن شيبان: إذا استوت سريّة العبد وعلانيته فذلك العدل، وإذا زادت السرية على العلانية فذلك الصدق، وإذا زاد الظاهر على السر فذلك النفاق.

١٠ قال يوسف بن أسباط: لأن أبيت ليلة واحدة أعامل الله بالصدق أَحَبّ إليَّ من أن أضرب بسيفين في سبيل الله.

وقال بعضهم: من لم يؤد الفرض الدائم لم يقبل منه الفرض المؤقت، فقيل: وما الفرض[٢] الدائم؟ قال: الصدق.

وسئل بعضهم عن الصدق فقال: هو الوفاء. قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا

١٥ مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾[٣]

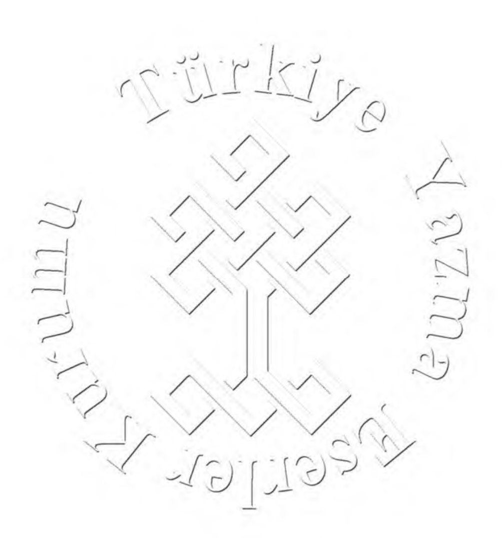
---

١ هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري، الإمام القدوة الزاهد، صحب خاله محمد بن سوار، ولقي بالحج ذا النون المصري وصحبه، وكانت له قدم راسخة في التصوف، وله مواعظ حسنة، وكلمات نافعة، توفي سنة ٢٨٣هـ. مصادر ترجمته: طبقات الصوفية للسلمي، ص ٢٠٦؛ حلية الأولياء لأبي نعيم الإسفهاني، ١٨٩/١٠، سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٢٠/١٣.

٢ وفي الأصل وما فرض.

٣ سورة الأحزاب ٢٣/٣٣.

وقال ذو النون[1]: مدار الحكمة على ثلاثة أشياء: على الصدق والتصديق والحقيقة بالجوارح.



١ هو الإمام الزاهد العالم. اختلف في اسمه، يكنى أبا الفيض، ويقال أبو الفياض. أصله من النوبة، من قرية من قرى الصعيد، ويقال لها: أخميم. روى عن مالك، والفضيل، وسفيان بن عيينة وطائفة، وروى عنه: الجنيد، ومقدام بن داود الرعيني وآخرون، وقد أسندت عنه أحاديث غير ثابتة، والحمل فيها —كما يقول الخطيب البغدادي — على من دونه. وكان واعظا فصيحا حكيما، وطلبه الخليفة المتوكل، فحمل إلى حضرته بسامرا، فلما سمع كلامه ولِع به وأحبه وكان يقول: إذا ذُكر الصالحون، فحيّهلا بذي النون. ثم انحدر إلى بغداد، وأقام بها مدة، ثم انحدر إلى مصر وتوفي بها سنة ٢٤٥هـ. مصادر ترجمته: طبقات الصوفية للسلمي، ص ١٥؛ الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري، ٥٨/١؛ حلية الأولياء لأبي نعيم الإسفهاني، ٣٣١/٩؛ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٩٣/٨؛ تهذيب تاريخ دمشق لابن بدران، بيروت، ٢٧٨/٥؛ صفة الصفوة لابن الجوزى، ٣١٥/٤؛ سير اعلام النبلاء للذهبي، ٥٣٢/١١.

باب الصبر والتصبّر

قال بعضهم: معنى الصبر تجرع المرارات عند بَدْء[1] المصيبات.

وقال الآخرون: الصبر هو السكون عند موارد [٤ب] المؤن.

قال بعضهم: الصبر تحمل الآلام عند نزول الأحكام.

وقال بعضهم: الصبر ترك الشكوى من ألم البلوى.

وقال الحارث: الصبر هو المقام على ما يرضي اللّه تعالى بترك الجزع. قال اللّه تعالى: ﴿و اصْبرْ نَفْسَكَ مَعَ الذينَ يَدْعونَ رَبَّهُم﴾[2] أي احبس نفسك.

وقال بعضهم: الصبر هو رؤية المرارة بعين الحلاوة.

وسئل الحارث عن الفرق بين الصبر والتصبر، فقال: التصبر حمل النفس على المكاره، وتجرع المرارات، فمطلب المتصبر تمحيص الجنايات رجاء الثواب، ومطلب الصابر ذرى منتهى الغايات.

قال: فالمتصبر يجد كثيرا من الآلام، والصابر قد سقط عنه كثير من عظيم المكابرات، ومطلبه العمل على الطيبة والسماحة.

وقال الحارث: بين الصبر والتصبر حالة من التنعيم، وذلك أنه إذا دفع اللّه تعالى له علما من الآخرة يدله على منازل الصابرين عنده، فوقع له قدر الطاعات حتى وجد الحلاوة الدائمة، ورأى أنّ ذلك نعمة من اللّه تعالى ولطف، فينعّم القلب بسرود النعم.

---

١ وفي الأصل بدو.

٢ سورة الكهف ٢٨/١٨.

وسئل الجنيد عن الصبر فقال: حمل المؤمن لله تعالى حتى تنقضي[1] أوقات المكروه.

وكان أبو بكر الشبلي[2] رحمه الله يقول: الصبر على وجوه: صبر في الله، وصبر مع الله، وصبر لله تعالى، وأشده الصبر عن الله. فالصابر لله وفي الله لا يجزع، ولا يكون منه الشكوى.

وقال بعضهم: إنما هو الصابر والصبور والصبّار والمتصبّر. فأما المتصبّر فهو من صبر في الله على المكاره، فتارة يعجز وتارة يصبر؛ والصابر من لا يشكو، ولا يعجز، والصبّار هو الذي إذا وقع عليه جميع البلايا والمحن لم يتغير من جهة الحقيقة، وإن تغير من جهة الرسم والخلقة.

قال القائل:

صابر الصبر فاستغاث به الصبر فصاح المحب بالصبر صبرا

والصبور هو الثابت على هذه المقامات.

وقال الحارث: الصابرون متفاوتون على قدر عقولهم، وما تسمو إليه همومهم، فكل منهم يزداد في صبره على قدر معرفتهم بقدره واتساع علمه، تعظيم ثواب الله تعالى وعطاياه، فيحتمل المُؤَن بسرعة العواقب، وسرعة الانقطاع لا تاب فقد علم أن الله ناظر إليه في صبره فاحتمل المُؤَن كلها لأجل أنه بعينه.

---

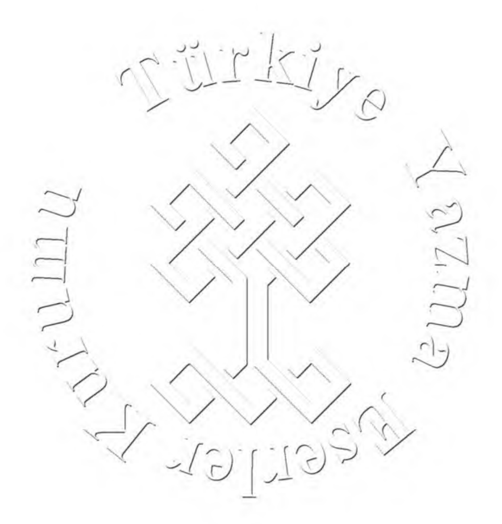
١ وفي الأصل ينقضي.

٢ هو أبو بكر الشبلي، اختلف في اسمه، خراساني الأصل، بغدادي المنشأ والمولد، وقيل: إنه ولد في سامراء. صحب الجنيد ومن في عصره من المشايخ، وصار أوحد وقته حالا وعلما. وكان فقيها على مذهب الإمام مالك. مات سنة ٣٣٤، ودفن في مقبرة الخيزران ببغداد، وقبره فيها مشهور. مصادر ترجمته: طبقات الصوفية للسلمي، ص ٣٣٨؛ حلية الأولياء لأبي نعيم الإسفهاني، ٣٦٦/١٠؛ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٨٩/١٤؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٦٧/١٥.

وسئل المحاسبي فقيل له: بماذا يقوّي الصابر على صبره؟ فإن طريق الصبر قلّ مسلكه. فقال: إذا علمت أن صبرك لمولاك [٥أ] لما يرضى به مولاك عنك صبّرك لأنه لمّا رضي عنك صبّرك. أما سمعت قول الحكيم؟

شعر:

٥ رضيت وقد أرضى إذا كان مسخطي   من الأجر ما فيه رضا من له الأجر



باب الحمد والشكر

سئل المحاسبي عن الشكر: ما هو وما معناه؟ قال: أن تعلم أن النعمة من الله تعالى وحده، وأنّ لا نعمة على الخلق من أهل السماوات والأرض إلا وبدايتها من الله تعالى، حتى تكون شاكرا لله تعالى عن نفسك، وعن غيرك، لمعرفة نعم الله تعالى عليك، وعلى غيرك.

وقال بعضهم: الشكر اعتراف باللسان أن النعم من الله تعالى، والاعتقاد بالقلب أن الله تعالى خالقها ورازقها، منشئها ومبدئها من غير استحقاق عليه لأحد. فاستعمال الآلات والأسباب المهيئات في طاعة الله تعالى.

وسئل الحارث فقيل له: هل يلزم على الشكر شكر؟ فقال: نعم، بأن يعلم أن الله وفقه لذلك الشكر، فشَكر الله على الشكر الذي وفقه له بقلبه، حتى فاض ذلك على لسانه، وحتى ينطق بالحمد، وهذا هو شكر الشكر، وليست له نهاية في الشكر، بل يلزم على كل شكرٍ شكرٌ، وغايته أن تقلّل الكثير من شكرك عند قليل ما أنعم الله تعالى به عليك.

وقيل: كيف يزداد الشاكر في الشكر؟ قال: إذا علم أنه مفرط في الشكر، وقال: بأن يعلم أن القليل مما معه من ذلك من عطاء مولاه، وأنه لو جاء بأعمال الخلق كلهم شكرًا لوجب عليه بذلك من نفسه في الشكر ما لا تحتمل جوارحه، ولا يقوم له عقله، فمن ذلك يستقل الكثير من شكره.

وسئل الحارث عن علامة الشكر فقال: الزيادة. فقيل له: وما الحُجّةُ؟ قال: قوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنّكُمْ﴾[1]

وأمّا الحمد فله معنيان: أحدهما: الشكر، والثاني: الثناء على المحمود بما هو أهل لذلك. يقال: حمدت أمر فلان، وأحمدت فلانا؛ إذا وجدته محمودا،
٥ ولذلك يقال: صلاح الدين والدنيا بالشكر والأدب، فالشكر فيما بينك وبين الخلق.

والشاكرون على ثلاث طبقات: فمنهم من يشكر الله رغبة في ثوابه، ومنهم من يشكره تعالى رهبة من عقابه، ومنهم من يشكر تلذذا بالثناء عليه.

وقال بعضهم: حقيقة الشكر هو الاعتراف بالعجز عن الشكر، وفي معناه
١٠ قال الشاعر:

إذا كان شكري نعمةَ الله نِعْمَةً   علَيَّ له في مِثْلِها يَجِبُ الشُّكْرُ

فليْسَ بُلوغ الشُّكْرِ إلا بِفَضْلِه   وإنْ طالتِ الأيَّامُ واتَّصَلَ العُمْرُ[2]

وقال ابن مسعود يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة [٥ب] دواوين: ديوان الحسنات، وديوان السيئات، وديوان النعم، فيقابل الحسنات بالنعم، ولا يؤتى
١٥ بحسنة إلا ويؤتى بنعمة حتى تغمر الحسناتِ النعمُ، ويبقى الذنوب فيمحو الله ما يشاء.

---

١ سورة إبراهيم ١٤/٧.

٢ من بحر الطويل، وهما من أبيات للشاعر محمود بن حسن الوراق، انظر كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، المكتبة العصرية بيروت ١٩٨٦ ص ٢٣٢

ورُوِي أن الحسن بن علي التزم الركن فقال: إلهي، نَعّمْتَني فلم تجدني شاكرا، وابْتَلَيْتَني فلم تجدني صابرًا، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر، ولا أدمت الشدة بترك الصبر! إلهي ما يكون من الكريم إلا الكرم!.

وقال محمد بن كعب: كل عمل عملت لله فهو أداء شكر نعم الله تعالى.

ه وقال ﷺ: عجبًا لأمر المؤمن إنّ أمره كلّه خير، إن أصابه ما يحبّ حمِد الله عليه، وإنْ أصابه ما يكره فصبر عليه فكان له خيرًا؛ وليس أحد أمره كله خير إلا المؤمن.»[1]

[1] أخرجه مسلم في الزهد، ٦٤؛ والدارمي في الرقاق، ٦١؛ وأحمد في مسنده، ٢٤/٥.

باب الكلام في رضا العبد عن الله

سئل الحارث عن الرضا فقال: علم العبد بأن الله تعالى عدل في قضائه، غير متهم فيما حكم. فقيل له من أين مخرج الرضا؟ قال: من حسن الظن بالله تعالى والمعرفة أنه غير جائر في حكمه. فقيل له: زدنا، قال: إذا أبصرت العقول، وأيقنت القلوب، وعلمت النفوس، وشهدت لها العلوم أن الله تعالى أجرى بمشيئته ما علم أنه خير لخلقه، المُؤَن من اختياره ومحنه علمت القلوب أنه واحد عدل، ليس كمثله شيء خرجت الجوارح عن أن تعترض على من قد علمت أنه عدل في قضائه غير متّهم في حكمه.

فقيل له: ما الرضا؟ قال: سرور القلب بِمُرّ القضاء، وضدّه السخط وهو تبرّم القلب وكراهته لما وقع، وكثرة الاختيار بالتملّك. فإذا علم العبد أن الله تعالى ناظر إليه في احتماله مؤنة ما قضاه عليه احتمل ذلك؛ لعلمه بنظر الله إليه في المحنة إذا رآه قد ألقى كنفه بين يديه ورأى شدة فاقته إليه.

سئل الحارث: هل يحتاج الراضي إلى حالة تثبت بها في الرضا، ويزيد في قدر الرضا عنده؟ فقال: نعم، خوف السلب يديم له حالا في ثبوت الرضا، ومعرفة التقصير في الشكر لله تعالى. فهاتان الحالتان تزيدان في قدر الرضا عن الله تعالى.

وقال قوم: حقيقة الرضا: هو رفع الاختيار لمجاري حكم الجبّار.

وقال قوم: حقيقة الرضا: أن لا تجزع على ما فات ولا تحزن على من مات.

وقال بعضهم: حقيقة الرضا: النظر إلى ما اختاره الحقّ في القدم، والتسليم في ما يجري على الخلق.

٥ وقال بعضهم: الرضا هو موافقة الحق في التقدير، قبل نزول الحكم بالتدبير.

وقال أبو سليمان الداراني: الرضا عن الله تعالى، والرحمة للخلق [٦أ] درجة المرسلين. وقال أيضا: من لبّ الرضا أن لا تريد غير الله، ولا تريد حتى ما يريد الله.

وقال أبو سليمان: أشرف العبادات الرضا عن الله، والإخلاص له.

وسئل أبو تراب عن الرضا فقال: أن يكون العبد في مكاره القضاء كهو في

١٠ محبوباتها.

وقال ابن الأعرابي: الرضا كلّه في ترك الاعتراض، وأعلى الرضا في الموافقة لله تعالى.

وقال الشبلي وقد سئل عن الرضا فقال: هو القنوع فيما بدا.

وقال الخلدي[1]: سمعت الجنيد يقول: سمعت سريّ السقطي يقول: وقف عليَّ شابٌّ حدث السن، حسن الوجه فقال: يا أستاذ هل يدري العبد أن الله تعالى راض عنه؟ فقلت: لا. فقال: بلى، يعلم. فقلت: من أين؟ فقال: إذا وفقني لما يحبّ ويرضى، وجنّبني ما يكره ويسخط؛ علمت أنه قد رضي عنّي.

٥ وقال يحيى بن معاذ: من رضي بالله مدبّرًا سرّه كل ما قضى. وقال أيضا: من لم يرض عن الله في الممنوع لم يسلم من المعصية في الممنوح.

وقال النوري في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[2] قال: الرضا والتسليم.

وقال الداراني: أرجو أن أكون قد رزقت من الرضا طرفًا؛ لو أدخلني ربّي النار لكنت بذلك راضيا. وقيل له: ''فلانا يقول: اللّهم ارضَ عني فإني عنك ١٠ راضٍ!'' فقال: لو كان راضيا لم يقل اللّهم ارضَ عنّي! ثمّ قال: يا سبحان الله ما يستحق العبد أن يقول لربه أنا عنك راضٍ.

---

١ هو الإمام القدوة المحدّث، شيخ الصوفية أبو محمد الخلدي، صحب الجنيد وعرف بصحبته وروى عن الحارث بن أبي أسامة، وأبي القاسم البغوي وغيرهما من أئمة الحديث، وكان ثقة صادقا فاضلا، وكان المرجع إليه في علوم القوم وكتبهم وحكاياتهم، وكان من أفتى المشايخ وأجلّهم وأحسنهم قولا. حجّ قريبا من ستين حجة، وتوفي ببغداد سنة ٣٤٨، عن خمس وتسعين عاما، ودفن بالشونيزيّة عند قبر سريّ والجنيد. وله مؤلفات، منها: كتاب الفوائد والزهد والمراثي، وقد طبع بعضه. انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢٢٦/٧؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥٥٨/١٥.

٢ سورة التّغابن ١١/٦٤.

باب في رضا الله عن العبد

فقال قوم: هو توفيقه إيّاه لما يرضاه.

وقال بعضهم: هو مدحه إيّاه على ما يفعله، وتعظيمه له.

وقال قوم: وهو علمه به أنّه إذا كان أطاع وعبد وشكر رضي.

٥ وقال بعضهم من أصحابنا: رضا الله عن العبد هو إرادته له الخير، وأن يكون موافقا للطاعة في الدنيا، متعرضا للكرامة في العقبى.

وقال الحارث: إنّ رضا العبد عن الله تعالى من رضا الله عن العبد، فإذا رضي الله العبدَ عبدًا رضي العبدُ ربَّه ربّا ومدبرا، إنه عن محبة الله لعبده.

وقال يحيى بن معاذ الرازي في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُروني أَذْكُرْكُمْ﴾[1] وما ذكر

١٠ اللهَ أحدٌ حتى ذكره بأنه يذكره.

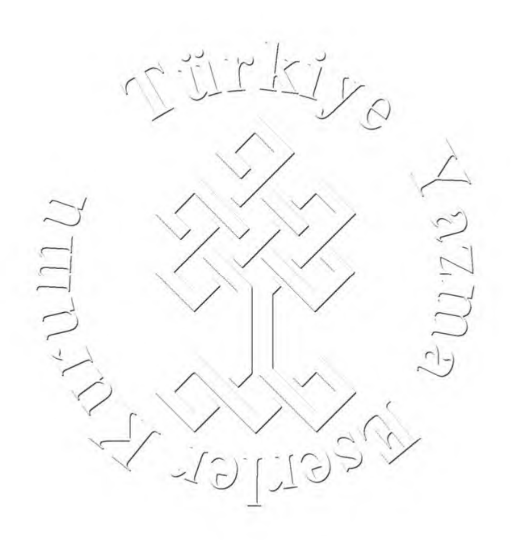
وقال الشيخ أبو بكر محمد بن الحسن رحمه الله: واعلم أنّ رضا الله ومحبته وذكره عندنا من صفات ذاته، وأن الله تعالى لم يزل راضيا عمّن يعلم أنه يموت على الإيمان، ساخطا على من يعلم أنه يموت على [٦ب] الكفر، وكذلك لم يزل ذاكرا بالخير من علم أنه يكون

١٥ من أهل الخير إذا خلق، وكذلك ابتدأ جلّ وعزّ بذكر محبته ورضاه.

---

١ سورة البقرة ٢/١٥٢.

فقال: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾[1] وقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي الله بقَوْمٍ يُحِبّهُمْ ويُحِبّونه﴾[2] فبدأ بذكر محبته؛ لأنّ محبتهم عن محبته، ورضاهم عنه، عن رضاه لهم وعنهم.



١ سورة البيّنة ٩٨/٨.
٢ سورة المائدة ٥/٥٤.

باب الكلام في معنى الدنيا ومعنى المحمود والمذموم منها

سئل الحارث عن الدنيا ما هي؟ قال: الدنيا منها ظاهر، ومنها باطن، ومنها عرض، ومنها جسم، ولها أول، ولها آخر، ولها شاهد، ولها غائب. فقيل له: فما الباطن منها؟ قال: اتباع الهوى الذي بطن في النفس، واتبعته القلوب، مثل ٥ الكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمخادعة والمراد به المداهنة وحبّ الحمدة وجمع المال والتكاثر والشرف والتفاخر. وأما الظاهر منها فالدينار والدرهم والثوب والدار والخادم والمركب ومثله، وشبهه ظاهرها، فالذي يسر صاحبه ويقطعه عن الآخرة.

وقالت طائفة: هي الدينار والدراهم.

١٠ وقالت أخرى: هي التكاثر والتفاخر.

وأصحّ الجواب ما ذكرنا من متاع ظاهرها وباطنها.

وسئل الحارث عن المحمود منها والمذموم فقال: جملة ذلك كله أن ما أخذت من الدنيا للدنيا فهي الدنيا المذمومة، وما أخذت من الدنيا للآخرة فليس بمذموم، وذلك أنّ النبي ﷺ قال: «من طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا لقي ١٥ الله وهو عليه ساخط، ومن طلبها استعفافا عن المسئلة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر.»[1]

---

١ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم ١٠٣٧٣، والفتني في تذكرة الموضوعات، ١٧٤.

قال: فإذا أخذها منها للتكاثر والتفاخر وإقامة الجاه والقدر والعلو والمباهاة[١] وجمع الفضول لخوف الفقر في الدنيا فهي الدنيا المذمومة، وإذا كان أخذه لها من طريق المباح فيما لا بدّ منه صيانة للدين فهو من الدنيا المحمودة، وليس بمذمومة، كما قال النبّي ﷺ: «حبّب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعل قرّة عيني في الصلاة.»[٢]

فهذا مما لا يضر، ولا ينقص من الزهد ولا يسمى بدنيا[٣] مذمومة، وإنما ذم الله من الدنيا فضولها، كما بلغنا عن عمر ﷺ أنه استعمل أبا الدرداء ﷺ على حمص فاتخذ كنيفًا، وأنفق عليه درهمين فكتب إليه: «من عمر أمير المؤمنين إلى عُويمر، قد كان لك في بناء فارس والروم ما تكتفي به عن عمران الدنيا، حتى أذن الله بخرابها فإذا أتاك كتابي هذا فقد سيرتك أنت وأهلك إلى دمشق.» فلم يزل بها حتى مات.

وقال [٧أ] بندار بن الحسين: حقيقة الدنيا المذمومة :كل ما دنا من القلب حرصه، وشغل عن الربّ ذكره فهو الدنيا المذمومة، وأصله من الدنوّ وهو القرب، وكل ما قرب من القلب مما بعد له عن الله فهو الدنيا المذمومة.

---

١ وفي الأصل المباهات.

٢ أخرجه النسائي في عشرة النساء، ١؛ وأحمد في مسنده، ٣/١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥.

٣ وفي الأصل لا يسمى دنيا.

باب معنى الفقر والغنى

أما الكلام في الفقر والغنى، قال أبو بكر: إنّ الفقر على ثلاثة أقسام: منها فقر الخليقة إلى الله، ومنها الفقر بمعنى عدم الأملاك والجدات[1] من عرض الدنيا، ومنها فقر النفس، وهو ما استعاذ منه النبي ﷺ.

فأما الفقر الذي تكلم فيه القوم، وأشاروا إلى فضله، فإنه يُحكى عن الجنيد رحمه الله أنه سئل عن الفقير الصادق، ومتى يكون مستوجبا لدخول الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة عام، فقال: إذا كان هذا الفقير معاملا لله تعالى بقلبه، موافقا له فيما منع، حتى يعد الفقر من الله تعالى نعمة عليه، يخاف على زوالها، كما يخاف الغَنِي عن زوال غناه، وكان صابرًا محتسبًا باختيار الله له الفقر، صائنًا لدينه، تمًا لفقره، مظهرا للاياس في الناس، مستغنيا بربه في فقره، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لِلْفُقَراءِ الّذينَ أُحْصِروا في سَبيلِ اللهِ﴾[2] الآية. فإذا كان الفقير بهذه الصفة دخل الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة عام، ويُكفَى في القيامة مؤنة الوقوف والحساب.

ويحكى عن الجنيد أنه قال: لا يتحقق الإنسان بالفقر حتى يتقرر عنده أنه لا يرد في القيامة أفقر منه.

وأما الغنى فعلى الأقسام التي ذكرنا في الفقر: منها غنى النفس، وهو المطلوب المحمود عند الجميع. ومنها الغنى بالمال، وهو موضع الخلاف. ومنها الاستغناء بالله تعالى.

---

١ وفي الشعر: المال والفراغ والجدة.

٢ سورة البقرة ٢/٢٧٣.

وسئل جنيد: أيما أتمّ، الاستغناء بالله تعالى أو الافتقار إليه؟ فقال: الافتقار إليه موجب للغناء به، فإذا صحّ الافتقار إليه كمُل الغناء به. فلا يقال أيهما أتمّ، لأنهما حالان لا يتمّ أحدهما الا بتمام الآخر، ومن صحيح الافتقار صحيح الغناء.

سئل يوسف بن الحسين[1]: ما علامة الغنيّ؟ فقال: أن يكون غناه للدين لا للدنيا، فإذا كان هذا الغني آخِذًا للشيء من جهته، غير مانع عن حقه، ممن يتعاون في كسبه على البرّ والتقوى، لا متعاونًا في تجارته على الإثم والعدوان، ولم يتعلق قلبه بماله دون الله تعالى، ولا استوحش من فقره، ولا استأنس بملكه، وكان في غناه مفتقرا إلى الله تعالى، وفي فقره مستغنيا به كان من أهل الفوز والنجاة، ودخل الجنة بعد الفقراء بخمس مائة عام كما جاء في الخبر[2] عن النبي ﷺ.

وسئل عمر بن عثمان المكّي عن الغنى [٧ب] فقال: إذا استغنيت بالغناء كنت محتاجا إليه من أجل استغنائك وإذا كنت غنيا بالله لا بالغنى كنت مستغنيا عن الغنى وغير الغنى.

وقال الجنيد: النفس التي قد أعزّها الحق بحقيقة الغنى يزول عنها مرافقة الحاجات والفاقات.

---

١ هو يوسف بن الحسن بن علي أبو يعقوب الرازي، الإمام العارف القدوة، صحب ذا النون المصري وأبا سعيد الخراز وأبا تراب النخشبي، ومات سنة ٣٠٤. قال السلمي: كان إمام وقته، لم يكن في المشايخ أحد على طريقته في تذليل النفس وإسقاط الجاه. مصادر ترجمته: طبقات الصوفية للسلمي، ص ١٨٥؛ الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري، ١/١٣٧؛ حلية الأولياء لأبي نعيم الإسفهاني، ١٠/٢٣٨؛ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤/٣١٤؛ طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى، ١/٤١٨؛ صفة الصفوة لابن الجوزى، ٤/١٠٢؛ سير اعلام النبلاء للذهبي، ١٤/٢٤٨.

٢ أخرجه ابن ماجة في الزهد، ٦؛ والدارمي في الرقاق، ١١٨؛ وأحمد في مسنده، ٢/ ٢٩٦، والترمذي في الزهد، ٣٧ عن أبي هريرة وصححه، وقال الألباني حسن صحيح.

وقال الحارث: إنما يستحقّ وصف المدح إذا اتخذ الفقر شعارا ودثارا، واختاره على الغنى اختيارا. وتفاوتهم في المقامات في الفقر على قدر عقولهم، وذلك على قدر تفاوتهم في صبرهم وقنوعهم وسكونهم ويقينهم وحسن ظنهم بربّهم؛ فمنهم صابر ومنهم متصبّر، ومنهم ورع ومنهم متورّع، ومنهم زاهد ومنهم متزهّد. فأما المتصبر فهو الذي يجد المكاره ويقع به شدة الآلام، ويعمل في حالة التمحيص. وأما الصابر فهو الذي أسقط عنه عظيم المكابرة على قدر علمه بعظيم ما يؤمّل من الله تعالى. وأما المتورّع فهو الذي ينال شيئا من الشبهات في وقت ويتركها في وقت، ويغلب حاله في وقت، فيقطعها بالكلية، ومرة أخرى يميل إلى بعضها. وأمّا الورع فهو الذي أسقطها عن قلبه، وآيس النفس من رَوْح الانبساط إلى الدر منها، حتى فارق بحسن ورعه الدنيا، وعزفت نفسه عنها.

باب الكلام في شرف الفقر على الغنى

وقد تكلم الناس في شرف الفقير القانع على الغنيّ الشاكر، فذهب الأكثرون إلى أنّ الفقير القانع أشرف حالا من الغنيّ الشاكر، وذهب بعضهم إلى أنّ الغنيّ الشاكر أشرف حالا من الفقير القانع الصابر، واحتجّ بأن أفضل الأنبياء مثل نوح وإبراهيم وموسى والأكابر كانوا أغنياء، وقلّ من كان من الأنبياء فقيرا من ذلك نوح وسفينته، وإبراهيم وغنمه، وداود وعسكره، وموسى وخزائنه، ومحمد وفدكه -عليهم صلوات الله-.

قالوا: ووجدنا الغنيّ قد أعطي ما وجب عليه فيه الشكر والصبر، وكذلك الفقير، إلا أنّ ما دفع إليه الفقير مما وجب عليه فيه الصبر قد شركه الغنيّ فيه، وهو الحضور بين يدي الله وفراغ القلب إلا من الله تعالى، والغنيّ معه ما أوجب الله عليه فيه الشكر ما ليس هو للفقير، والشكر نعمة يجب شكرها أبدًا. ومن استعمل أفضل ممن لم يستعمل.

قال: وهذا الغنيّ يكون غنيّا من عيون الملِك، قد فوّض الملك أمره إليه في إنفاق ماله على عباده، وقد سيقت إليه كنوز الأرض، وامتدت الأعين إليه في ذلك، فطائفة تقول هذا باب الملك، وطائفة تقول هذا عين الملك، [٨أ] وطائفة تقول هذا عبد الملك، وطائفة تقول هذا حبيب الملك، قد علاه الاتصاف.

وشمله الاعتراف، حسن اليقين، كامل بجميع أمور الدين، معونة للصالحين والطالحين، فتارةً يغترف من بحار التمكين، وتارة يخطر على مصطبة الولاية، ينفذ مال الملك إلى فقرائه الطالبين، الذين قد أباحهم الملك الجواد طلب ما يستعينون به على إقامة الدين، فقد شارك الفقير في الأفكار والأذكار والقرب والمؤانسة ٥ والمحادثة والمجالسة، وبات بحاله مع سيده، وينظر ما يخاطب به في تنفيذ أمواله في عباده، وبأنه قد امتن الله تعالى على نبيه ﷺ بالغنى.

فقال تعالى: ﴿ووَجَدَكَ عَائلاً فَأَغْنَى﴾[1] قال المفسرون: العيلة الفقر، وأغناه بمال خديجة، وبأن الغنى من أوصاف الله تعالى، ولا يجوز أن يسمّى فقيرا، وإنما يوصف الله بالأمدح والأفضل.

١٠ وقال الآخرون وهم الأكثرون من المتقدمين والمتأخرين: إنّ الفقير الصابر أتمّ حالا من الغنيّ الشاكر، واحتجّوا لذلك بقوله تعالى: ﴿الشيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ﴾[2] فأخبر الله أنّ الشيطان يخوّف عباده بالفقر، وليس تخويفه بالفقر إلا للحثّ على الغنى، وكيف يستصوب المرء في نفسه موافقة الشيطان في تخويفه عباد الله بالفقر، وحثّه إيّاهم على الغنى، وبأنّ الله تعالى مدح الفقراء في قوله: ١٥ ﴿للفقراء المهاجرين﴾[3] وبقوله: ﴿لِلَّذين أُحْصِروا في سَبيلِ اللّه﴾[4]

١ سورة الضّحى ٩٣/٨.
٢ سورة البقرة ٢/٢٦٨.
٣ سورة الحشر ٥٩/٨.
٤ سورة البقرة ٢/٢٧٣.

وذم الأغنياء بقوله: ﴿إنما السبيلُ على الذين يستأذنونك وهم أغنياءُ﴾[1] وقال في آية أخرى: ﴿حتَّى إذا أخذْنا مُتْرَفيهِمْ بالعَذابِ إذا هُمْ يَجْأَرون﴾[2] وقال: ﴿ولا على الذين لا يَجدون ما يُنْفِقون حَرَجٌ﴾[3]

وبأنّ النبيّ ﷺ قال: «يدخل فقراء أمتي قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام.»[4]

٥ ولما روي أنه ينادي المنادي يوم القيامة: أين صفوتي من عبادي ؟ فيقول الملائكة: مَن صفوتك من عبادك يا ربّنا؟ فقال: القائمون الراضون بقضاء الفقر.

أو بأن اللّه تعالى فضّل السخاء على البخل ولو كان الغنى أفضل من الفقر لكان البخل أفضل من السخاء، والإمساك أفضل من العطاء، والجازع بفوت[5] الدنيا أفضل من الصابر، لأنّ البخل منع الشيء الفاضل برغمه، والسخاء ١٠ استنقاص الشيء الفاضل.

وقد مدح اللّه تعالى مَنْ آتى المال على حبه، وذمّ مَنْ بخل به. فقال: ﴿سيُطَوَّقون ما بَخِلوا به يَوْمَ القِيامَةِ﴾[6] وأيضا [٨ب] فإنّ اللّه تعالى مدح أهل القناعة فقال: ﴿لا يَسْأَلون الناسَ إلْحافًا﴾[7] فلو كان الغنى أفضل من الفقر لكان السائل أفضل من القانع، والمتعرض أفضل من المتعفف؛ لطلبه الشيء الفاضل ١٥ وترك المتعفف وجود الأفضل.

---

١ سورة التّوبة ٩/٩٣.
٢ سورة المؤمنون٢٣/٦٤.
٣ سورة التّوبة ٩/٩١.
٤ أخرجه ابن ماجة في الزهد، ٦؛ والدارمي في الرقاق، ١١٨؛ وأحمد في مسنده، ٢/٢٩٦.
٥ وفي الأصل يفوت.
٦ سورة آل عمران ٣/١٨٠.
٧ سورة البقرة ٢/٢٧٣.

ألا ترى أن السائل في العلم أفضل من الساكت عنه؛ لفضل العلم على الجهل، ولذلك من كان أحرص على المال والدنيا يجب أن يكون على مذهبه أفضل.

ومن كان أزهد في الدنيا فهو أدنى منزلة لأنه زهد في الأفضل، وقد أجمع الجميع على أن الحرص على الدنيا مذموم، وأن الفضل في الزهد فيها محمود. وقد قال النبيّ ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ وقال: أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا.»[1] فحكم الرسول ﷺ للكثرة والغنى والتنعم بحكم الدنيا، وحكم للقلة والفقر بحكم الآخرة؛ لقوله ﷺ: «ولنا الآخرة». ووجب بذلك فضل الفقير على الغنيّ كفضل الآخرة على الدنيا. وقد قال ﷺ: «من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته، ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه، فآثِروا ما يبقى على ما يفنى.»[2]

١ أخرجه أحمد في مسنده، ٣/١٤٠.
٢ أخرجه أحمد في مسنده، ٤/٤١٢.

باب الإخلاص

فأما الكلام في الإخلاص وصفته، قال المحاسبي -وقد سئل عن ذلك- فقال: علامة الإخلاص خروج الخلق عن القلب في معاملة الحق، وقصد القلب بالعمل لله تعالى وحده لا شريك له، والنظر في ثواب الله لا يريد بذلك حب محمدة ولا كراهة ذمّ، قال: وإنما سُمّي الإخلاص إخلاصا لأنه خلص من الآفات. يقال: "أخلص فلان لفلان المحبّة." أي لم يمازجها بشيء غيرها، يعني من رياء وعجب، وحبّ محمدة.

وسئل المحاسبي فقيل: الإخلاص فرض أم نفل؟ فقال: هو فرض من الله تعالى، واجب لازم في سائر الأعمال، لقوله: ﴿وما أُمِروا إلا لِيَعْبُدوا الله مُخْلِصِين له الدِينَ﴾[1] ولقوله: ﴿ألا لله الدينُ الخالِصُ﴾[2]، فكل من داخله رياء أو إعجاب في عمله، أو حب محمدة أو كراهة مذمة في سقوط المسألة فليس بمخلص في عمله.

وقيل له: من أين مخرج الإخلاص؟ فقال: مخرجه من طريق الرغبة والرهبة في أصول العقود قبل العمل، فإذا هيجه للعمل رغبة أو رهبة فاعترضت الآفة عليه ودفعها بقلبه وكرهها عند ذلك. فقيل له: اضرب لنا في ذلك مثلا، فقال: نعم، إنّ الشجرة إذا يبس عروقها انقطعت عن شذبها، ولم يحسن فرعها، وجف ورقها، [٩أ] ولم ينتفع بها، وذهب قدر قيمتها،

---

١ سورة البيّنة ٩٨/٥.

٢ سورة الزمر ٣٩/٣.

فإذا غاض عروقها، وعابت عن الناظرين إليها كثر شذبها، وجرى ماؤها، وتزايد فروعها، واخضر ورقها، وطاب ثمرها، وجناها صاحبها. كذلك العمل الصالح له أصول في القلب مغطاة عن الخلق. فإذا زكى في نفسه، وطهر عن الأدناس كثر الصواب لصاحبه، وإذا بدا عمله لم يأمن عليه من أبصار الناظرين إليه، وكلما كان ٥ أخفى في القلب عملا كان زائدا في قدر الصدق والإخلاص. كما قال النبيّ ﷺ: «عمل السر يزيد على العلانية بسبعين ضعفا.»[١]

وسئل الحارث عن أخوف ما يخاف عليه في ذلك الوقت [فقال:] الإعجاب، لأن الرياء غائب عنه، إلا أن يستحسنه بقلبه، ويحب إطلاع الناس على سريرته.

وقال آخرون: هو الإغماض عن رؤية الأعمال والنظر بالعناية في الأفعال.

١٠ وقال آخرون: حقيقة الإخلاص ما يراد به الحق، ويقصد فيه الصدق.

وقال آخرون: هو ما لا تشوبه الآفات، ولم يتبعه رخص التأويلات.

وقال آخرون: حقيقة الإخلاص هو ما خلص من تكدير الآفات، وتعرّى[٢] من تأثير الشبهات.

وقال الفضيل: من عرف الله حق معرفته فهو بعيد من الضلالة، ومن عرف ١٥ الإخلاص فهو بعيد من الرياء، ومن أنزل الموت حق منزلته لم يغفل عن الموت.

---

١ أخرجه أبو نعيم الإسفهاني في حلية الأولياء، ٢٦٤/١٠.

٢ وفي الأصل تعبري.

وقال بعضهم: الإيمان ظاهر عام، والإخلاص باطن خاص.

وقال أبو بكر رحمه الله: الاستخلاص إنقاذ العبد من البعد عن الله تعالى، والإخلاص هو الخلاص من عذاب الله.

وقال بعضهم: يجب على المخلص أن لا ينقطع إلى غير الله، ولا يتكل على شيء دون الله تعالى، ولا يريد في سرّه غيره. ٥

سئل الجنيد عن الإخلاص فقال: سر بين الله تعالى وبين عباده، لا يعرفه ملك فيكتبه، ولا عدو فيفسده، ولا هوى فيميله.

وقال بعضهم: الإخلاص ترك ملاحظة الأغيار، يعني الانكار عند الأذكار.

وقال الآخر: الإخلاص معلّق بالأعمال، منوط بالأفعال، مرتبط بالأحوال.

١٠ فأما الإخلاص في الأعمال بأن يكون بالله لله تعالى، على رؤية الله تعالى. والإخلاص في الافعال أن يكون على رؤية التوفيق من الله تعالى، والاستطاعة من عنده. والإخلاص في الأحوال أن يكون مع الله عند الله، بنسيان ما عند الله.

وقال بعضهم: الإخلاص ترك رؤية الإخلاص، وذلك فناء النفوس؛ بأن يكون عملها [٩ب] لله على رؤية طمع أو تعليق.

١٥ وقيل أيضا: الإخلاص صفاء السر عن كدر البشرية، ونقاؤه عن دنس النفوسية، وإخلاص القلوب أن لا يكون فيها غير الله، وأن يكون انقطاعها إلى الله تعالى، وسرورها بالله تعالى.

وقال بعضهم: ﴿ألا للهِ الدِينُ الخالِصُ﴾[١] إنه تهديد في لطف.

١ سورة الزّمر ٣٩/٣.

باب في معنى الرياء والشرك والإعجاب
والفرق بين الرياء والنفاق

فقد سئل الحارث عن أصل الرياء قال: أصل الرياء من حب الدنيا. قيل: اكشف عن هذا، وأوضح الحُجّة فيه، قال: نعم، إنه لما أحب الدنيا أحب البقاء فيها، فأراد الجاه عند أهلها، وأحب أن يحسن مذهبه عند الخلق؛ ليتوسع بمراده فيها. قيل له: فما معنى الرياء؟ قال: حب المحمدة على الفعل الحسن. فقيل له: وما علامة المرائي؟ قال: ثلاث خصال: ينشط في الملاء، ويكسل في الخلاء، ويحب أن يحمده الناس على جميع أموره.

وسئل بعضهم عن الفرق بين النفاق والرياء، فقال: النفاق أن يقول باللسان خلاف ما يعتقد بالقلب، مأخوذ من النافقات وهو جحر اليربوع، له بابان إذا شُد عليه أحدهما خرج من الآخر، كذلك المنافق يدخل بلسانه ويخرج بقلبه. فأما المداهنة فهي المخادعة وهي صفة المنافق.

وسئل الحارث عن الفرق بين الرياء والإعجاب، فقال: صفة الإعجاب أن تنظر عند العمل إلى نفسك فتستكثره مع نسيان العلم من الله تعالى في التوفيق والمعرفة والتأييد، ويطلب حمد الناس على فعله الحسن، والحجّة فيه قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾[1] والاستكثار هو الإعجاب.

---

١ سورة التّوبة ٩/٢٥.

فقيل له بماذا يزول الإعجاب عن القلب؟ قال: بأن تعلم بأن اللّه تعالى ابتدأك بالعمل موهبة منه لك، ونعمة منه عليك، إذ خصك به لا بك، ولا بعمل استحققته، فإذا علمت أنها نعمة من اللّه وجب عليك الشكر للمنعم على النعمة؛ فترجو من اللّه حسن ظن باللّه تعالى أن يتقبل منك، وتخاف من اعتراض العدو، وفساد يلحقك في العمل.

فقيل له زدنا حالة تقوينا[1] على دفع الإعجاب عن النفس. فقال: نعم. أخبرني بما أعجبت، أبشيءٍ هو لك أم بشيء ليس هو لك؟ فإن قلت "بشيء هو لي" ادعيت علم الغيب، وكيف تعلم أنه لك، وقد غُيّب عنك قبوله، وانت غير آمن اعتراض آفات؟ وإن قلت "أعجبت بشيء ليس لي." [١٠أ] فكيف يجوز في العقل أن تعجب بشيء ليس لك؟

وأمّا الشرك، فعلى وجوه: أحدها: ما ذكره في قوله تعالى: ﴿إنّ اللّه لا يغْفر أَن يُشْرَك به﴾[2] وهو أن يُعتقد مع اللّه شريك في التقدير والاختراع، كما ذهب إليه القدرية والمجوس. والوجه الثاني: هو الشرك في العبادة، وهو الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿فَمَن كان يرجو لقاءَ ربّه...﴾[3] الآية. ولما روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء.»[4] فهو أنّه يخفي العمل ويحبّ أن يعلم بأنّه يخفي العمل.

---

١ وفي الأصل يقوينا.

٢ سورة النّساء ٤/٤٨.

٣ سورة الكهف ١٨/١١٠.

٤ أخرجه أحمد في مسنده، ٤/٤٣.

وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «للمنافق علامات، فادعوهم بها :تحيتهم لعنة، وطعمتهم نهبة، وغنيمتهم غلول، لا يأتون المساجد إلا هجرا، ولا يشهدون إلا دبرا مستكبرين، لا يألفون ولا يؤلفون جِيَف بالليل، بطالون بالنهار.»[1]

وقال ﷺ: «خمس لا تكون[2] في المنافق: الفقه في الدين، والورع باللسان، والسمت في الوجه، والنور في القلب، والمودة للمسلمين.»[3]

وقال الفضيل: أَحبّ الناس إلى المنافق من يمدحه بما ليس فيه، وأبغض الناس إليه من عرف عيوبه فأخبره بها.

وقال مالك بن دينار[4]: إن العبد إذا استكمل النفاق ملك عينيه، فبكى بهما متى شاء.

وقال الحاتم: المؤمن يعمل بالطاعة، ويخاف أن لا يقبل منه. والمنافق يعمل المعصية، ويتمنى على الطاعة، المؤمن يزرع ويخشى الفساد، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد، والمؤمن ينسى الخير ويحصي الذنوب. والمنافق يحصي الخير وينسى الذنوب.

وقال بعضهم: أقرب الناس إلى النفاق من إذا ذكر بما ليس فيه ارتاح، وإذا ذكر بما فيه من العيوب اغتاظ.[5]

وقال الحسن: لسان المؤمن من وراء قلبه، وقلب المنافق على طرف لسانه.

وقال يونس بن عبيد: إني لأعدّ مئة خصلة من خصال البرّ، فما أجد فيّ خصلة واحدة، ولو عددت مئة خصلة من خصال الشر ما يفوتني واحدة، فيا ويحاه!

١ أخرجه مسلم، في الإيمان، ٦؛ وأحمد في مسنده، ١٩٣/٢.

٢ وفي الأصل: لا يكون.

٣ لم نعثر عليه بهذا اللفظ، لكن روى الترمذي في العلم، ١٩، باب فضل الفقه على العبادة من حديث أبي هريرة: «خصلتان لا تجتمعان في منافق: حسن سمت، وفقه في الدين.» وقال: حديث غريب، وصححه الألباني.

٤ هو أحد الأئمة الأعلام علما وزهدا وورعا، وحديثه في الكتب الأربعة وغيرها. مات سنة ١٣٠. انظر سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٦٢/٥.

٥ في الأصل: اغتاض.

باب المعرفة

أما الكلام في المعرفة ومعناها وحقيقتها على تقاصد المتكلمين في هذا الباب. فمنهم من قال: المعرفة تعزيز الربوبية، وتذليل العبودية.

وحكي عن الجنيد أنه قال: المعرفة حقر الأقدار في مشهد الجبار. [١٠ب]

٥ وقال أيضاً بعبارة أخرى: المعرفة حقر الأقدار سوى قدره، ومحو الأذكار سوى ذكره.

وسئل الخلدي عن ذكر المعارف فقال: هم لا هم، ولو كانوا هم كانوا هم.

وقال الجنيد: إن اللّٰه تعالى عجل لأرواح أوليائه التلذذ بذكره، والوصول إلى قربه، وعجل لأبدانهم التلذذ بكل شيء، وجعل لهم لسانيْن: لسانًا في الظاهر

١٠ يعرفهم صنع الصانع في المصنوع، فلسان الظاهر يكلم أجسامهم، ولسان الباطن يناغي أرواحهم عن اللّٰه تعالى.

وقال الجنيد: أشرف كلمة في التوحيد قول أبي بكر ﷺ: سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته.

وقال آخرون: المعرفة عجز في حقائق الحق، وعبرة في الشهود والخلق.

١٥ وقال آخر: المعرفة إفراد الخواطر بالأسرار، والتفكر في الأغيار.

وقال آخر: يجب على العارف أن يفرّ فرارا بسره عما يتصور في وهمه عند غلبة شوقه إلى رؤية سيده، وملاحظة مولاه، فإن كل ما لا يتصور في وهمه عند غلبة شوقه إلى ما يتصور في الأوهام فهو غير الله تعالى.

وقال بعضهم: المعرفة علم بصفات الحق بذاته على ما هو به فيها.

٥ وقال ابن عطاء: المعرفة معرفتان: معرفة حق، ومعرفة حقيقة، فمعرفة الحق معرفة وحدانيته بما أبرز للخلق من أسمائه وصفاته؛ ومعرفة الحقيقة لا سبيل إليها لامتناع الصمدية، وتحقيق الربوبية لقوله تعالى: ﴿ولا يُحِيطون به عِلْمًا﴾[1]

وسئل بعضهم عن المعرفة، فقال: مطالعة القلوب لإفراده على لطائف تعريفه.

١٠ وسئل الشبلي ما بدء هذا الشأن وما منتهاه ؟ فقال: بدؤُه معرفته، وانتهاؤه توحيده، وقال: من علامة المعرفة أن يرى نفسه في قبضة العزة، يجري عليه تصاريف القدرة. قال: ومن علامة المعرفة أيضا المحبة؛ لأن من عرفه أحبه.

وسئل الحارث عن المعرفة، كيف ورودها إلى القلب ساكنة أو متحركة؟

١٥ فقال: هي في الأصول ساكنة بالإقرار بالعبودية بمعرفة التوحيد. وأما في هيجانها وزيادتها فمتحركة غير ساكنة، كجري الماء من مجاريه إلى مغيضه حتى يسكن،

---

١ سورة طه ٢٠/١١٠.

فإذا سكن صفا، وإذا صفا كان من العبد الهدوء والعلم، والحلم والسكون والأناة وحسن الظن بموعود الرب تعالى والتصديق [١١أ] بما وعد به والوعيد؛ ويكون الغالب على قلبه دوام الخوف والحياء والرجاء.

فقيل له: ما معنى المعرفة وما بيانها؟ فقال: أن تعرف الله بما عرّفك نفسه، فقيل له: وكيف نعرف ذلك؟ قال: يعرف بأياديه الكاملة، وصفاته البالغة، وقدرته التامة، وهو أن تعرف أنه واحد، لا يشبه خَلقَه، حكيم قدير، عليم غفور كريم، جبار رحيم، أول قبل كل شيء، وآخر بكل شيء كان وهو يكون، فهو بيده كوّن الأشياء تكوينا، وأتقن الصنع إتقانا مبينا؛ فإذا عرفه بهذه المعرفة ازداد[1] هيبة وتعظيما، استحياءً منه ومراقبة له.

وقيل له: فما أكمل حالات العارفين؟ قال: أن يلزم قلبه دوام العلم بنظر الله تعالى إليه في حركته وسكونه، وقيامه وقعوده، وذهابه ومجيئه، وأنه بعين الله في جميع منقلبه، وأنّ الله تعالى ناظر إليه في سره وعلانيته. وهذه صفة بحرٍ ليس له حد ولا شط، يجري منه السواقي، ولأنها تسير فيه المراكب إلى معادن الغنيمة.

فقيل له: اكشف عن ذلك. فقال: أما البحر فهو العلم الذي ليس له نهاية، وهو علم القلب بقرب الرب، وهو العلم الذي يؤدي إلى العظمة والهيبة، وهو البحر الذي ليس له حد ولا غاية، عجزت قلوب العارفين عن التفتيش لكيفيته، وانقطعت أفهام الموقنين في استدراكها بكليته، ورجعت أبصار قلوبهم غاشية إجلالاً وتعظيما، لما سارت أوهامهم في بحر المعرفة، ولجّت في قيادها إلى كنوز العلم منها.

---

١ في الأصل: ازدادت.

فقيل: وكيف بلغوا ؟ وإلى أيّ شيء بلغوا منه؟ قال: إنما بلغوا من ذلك على قدر ما طابت لهم الريح، وسارت بهم المراكب، واستقاموا على الاستواء، حتى وصلوا إلى معادن الجواهر، فتخيروا منها أنوارا تسطع بالهداية، ولا يضيق صدرك، ولا يغتر عن ذلك، ولا تحدثن نفسك الضعيفة[١] في أمرك: أن المعرفة تحن إلى من طلبها، وتنصب إلى من أشفق عليها.

فقيل: وكيف الإشفاق في طلبها؟ قال: أن يكون مثل الراعى الشفيق الكيس الرفيق؛ إذا تفرقت عنه الغنم[٢] في رؤوس الجبال، وبطون الأودية صاح بها صيحة من يريد يذودها عن مراتع الهلكة، فاستجابت واستجمعت الرعية لراعيها، فسرت بها في محجة الأبرار إلى [١١ب] منازل الأخيار.

وحكي عن عليّ بن الحسين أنه قال: من عرف الله بالاسم دون المعنى فهو كافر، ومن عرفه بالاسم والمعنى فهو يعرف إلهين، ومن عرفه بالأخبار فهو يدل على غائب، ومن عرفه بالأوهام فهو يدل على غير الله، ومن عرفه بحقيقة المعنى فهو عارف حقًّا.

قال بعضهم: مرادهم بذلك أن من عرف الله بالاسم دون المعنى فهو كافر إذا أثبت الذات وعطل[٣] الصفات، ومن عرفه بالاسم والمعنى فهو أن يجعل الصفة غير الموصوف وثبتت في الأزل غيرين، ومن عرفه بالأخبار دون شواهد الاستبصار ودلائل الاعتبار اعتمد ما يلحقه لواحق التهم، ومن عرفه بالأفهام لم يعرف المعبود، ومن عرف المشاهد المدرك بالحمد قد جل عن هذه الأشياء المعهودة، ومن عرفه بحقائق المعنى والصفة معترفا له بالمنة متجردا له من الحَول والقوة فهو العارف.

١ في الأصل: الضعيف.
٢ وفي أصل العبارة: الغنيم.
٣ وفي الأصل إذا تبت الذات وعطلت الصفات.

باب الكلام في معنى العلم والمعرفة والفرق بينهما

وهل يجوز أن يقال: عرفنا الله على الحقيقة أم لا؟ وقد فرق المفرقون منهم من أهل العلم والمعرفة فقالوا: ضد العلم الجهل، وضد المعرفة النكرة، وأنّه قد يعلم الشيء من لا يعرفه، وإن كان لايعرفه إلا من قد علمه، وأشاروا في الفرق بينهما إلى أن ما يسمى معرفة هو[1] الذي يرجع إلى حال العالم إذا استعمل علمه وعمل بمقتضاه، وبالغ فيه، وأن العلم ما يكون عليه من اعتقاد القلب للدين، والحقّ بالخبر والنظر.

وجمع جامعون بينهما فقالوا: كل علم معرفة، وكل معرفة علم، وأنّه لا يصح أن يعلم الشيء من لا يعرفه، غير أن قول القائل معرفة قد صار عند هؤلاء أخص من العلم، لأنهم لا يكادون يُسمون العالمَ عارفا إلا إذا كان مستعملا لعلمه، متخصصا بالأحوال الحميدة.

فأمّا ما يجرى في كلامهم أن لايعلم ولا يعرف على الحقيقة، ثم يتأوّلون ذلك على معنى نفي إحاطة العلم به، وأنه كما قال الله تعالى: ﴿ولا يُحيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[2] فهذا مما يجب تفصيله؛ لأنه كلام موهم، وذلك أنّ من قال: إن الله لا يصح أن يعلم على الحقيقة من الباطنية فإنما أشاروا عندنا إلى التعطيل، فالمعدوم يصح أن يعلم، وتحقيق ذلك على الوجه الصحيح أن من علم أن الله واحد لا يشبه خلقه [١٢أ] فيجب أن يكون علمه قد أحاط بأنه كذلك، وإلا لم يكن عالما به،

---

١ وفي الأصل: أن يسمى معرفة فهو...

٢ سورة طه ١١٠/٢٠.

وكذلك إذا علم أنه عالم بالمعلومات كلها، قادر على المقدورات، مريد لسائر المرادات خيرها وشرها، فيجب أن يكون قد أحاط علمه أنه كذلك، وإنما يرجع نفي إحاطة العلم به إلى المعلومات والمقدورات على الحقيقة، وذلك مما لا يتناهى، ولا يعلم غايتها، وعليه يتأول قوله: ﴿ولا يُحيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[1] أنه راجع ٥ إلى المعلومات، ألا ترى إلى ما تقدم ذكره قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ ما بيْنَ أَيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ ولا يُحيطُونَ به عِلْماً﴾[2] أي بما في بين أيديهم وما خلفهم، وهو المعلومات علما. وإذا لم يحمل الأمر فيه على ما ذكرنا أدى إلى كل تخليط وضلال، فاعلمه.

١ سورة طه ١١٠/٢٠.
٢ سورة طه ١١٠/٢٠.

باب الكلام في التوحيد

أما الكلام في التوحيد فإن الذي أشار إليه هؤلاء القوم بهذه العبارة فإنما أرادوا به إفرادا بربوبية اللّه تعالى قولا وعقدا، ثم يشيرون في الفرع إلى معنى يعبرون عنه بعبارات:

٥ فمنهم من قال: حقيقة التوحيد إفراد الرب وإسقاط العبد.

ويحكى ذلك عن الجنيد، ومعناه: يشبه تقدير الأمور إضافة تدبيرها إلى اللّه تعالى وإسقاط ذلك عن العبد.

وقال بعضهم: التوحيد محو آثار البشرية، وتجريد صفات الألوهية.

ومنهم من قال: التوحيد للحق، والخلق طفيليّ.[١]

١٠ ومحكي ذلك عن الشبلي، ومعنى ذلك: أنهم عن توحيد اللّه لهم يوحدونه، ومعنى ذلك: أنه تعالى هو الذي أفرد هموم الخلق فيه حتى اجتمع فيه ما كان متفرقا في غيره، فلما جعل همومهم همًا واحدًا فيه كانوا موحدين له بتوحيده إياهم.

وقال بعضهم: إن التوحيد لله تعالى على معنى أنه وحّد نفسه في أزله بقوله:

١٥ ﴿شَهِدَ اللّه أَنَّه لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾[٢] وهذا توحيد اللّه لنفسه، ثم أخبر عن شهادة الملائكة وأولي[٣] العلم بتوحيده، فكانوا في توحيدهم تبعًا لتوحيده، وهو معنى قول الشبلي والخلق طفيلي[٤] لأجل أنه يكون تابعا.

---

١ وفي الأصل طفيل.

٢ سورة آل عمران ١٨/٣.

٣ وفي الأصل اولوا.

٤ وفي الأصل طفيل.

ويحكى عن بعضهم قال: ما وحد اللّه أحدٌ غير اللّه، ومعناه: أنه هو الذي عن توحيده تصدَّر توحيد الموحّدين، وكل توحيد منسوب إلى توحيده؛ لأجل أنّه منه بدأ، وإليه يعود.

وأما ما يذهب إليه المحققون من أهل النظر في معنى ذلك فغير مخالف في الأصل لما أشاروا إليه، لأنه لا خلاف بين أهل الحق أن أحدا لا يصل إلى حق ولا إلى باطل إلا باللّه، وأن من اهتدى فبه اهتدى [١٢ب] ومن ضلّ فبه ضل، لا يقدر أحد ابتداء خير ولا شر ولا نفع ولا ضرّ إلا باللّه.

ويحكى عن الشبلي قال: من أشار إلى اللّه فقد كفر، وإنما أراد بذلك أن يكون في إشارته بنفسه لا بربه، أو تكون إشارته على وجه يقتضى التحديد له.

وأما على غير هذا الوجه فلا يمتنع أن يقال: إنّه أشار إليه به على معنى الذكر له، والمعرفة به على التبرّي من الحول والقوة فيهما، وعلى هذا يُحمل معنى قول من قال: من ذكره فقد افترى، لأنّ المراد به من ذكره بنفسه، ورجع فيه إلى حوله وقوته أي يرجع فيه إلى أنه ذكره حق الذكر، إشارة إلى ما قال تعالى: ﴿وما قَدَروا اللّه حَقَّ قَدْرِهِ﴾[١] قالوا في التفسير: ما ذكره أحد حَقَّ ذكره، ولا عرفه أحد حقّ معرفته.

١ سورة الأنعام ٦/٩١.

وقيل لأبي بكر الشبلي: إن الناس يقولون: اللّه، وأنت تقول: اللّه، فما الفرق بينهما؟ فقال: هم يقولون نفسا بنفس، وأنا أقول اللّه حقا بحق. وكثيرا ما كان يقول: "ما قال اللّه أحدٌ إلا اللّه." والمعنى في ذلك: قوله "إلا" عن علة ولا بعلة؛ بل هو عن علم به تام، وتعظيم له كامل.

وسئل ذو النون عن التوحيد ما هو؟ قال: أن تعلم أن قدرة اللّه في الأشياء بلا مزاج، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، وليس في السماوات العلى، ولا في الأرضين السفلى مدبّر، غير اللّه وكل ما تصور في وهمك فاللّه تعالى بخلاف ذلك.

وقال آخرون: التوحيد نسيان ما سوى التوحيد بالتوحيد.

وقال أبو سعيد الخراز[1]: أول علامة التوحيد خروج العبد عن كل شيء، ورد جميع الأشياء إلى متوليها، حتى يكون المتولي بالمتولى ناظرا، إلى الأشياء قائمًا، يشير إلى تولية الحقّ له حتى يرى قوام الأشياء باللّه لا بذواتها، كما قال القائل:

وفي كُلِّ شيء له آيَةٌ   تَدُلُّ على أَنَّه واحِدٌ

وسئل الشبلي عن توحيد البشرية وتوحيد الإلهية فقال: بينهما فرق؛ لأن توحيد البشرية في خوف العقوبات، وتوحيد الإلهية توحيد التعظيم.

---

1 هو أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادي الخراز، شيخ الصوفية. يقال له قمر الصوفية. الإمام القدوة، كان من المذكورين بالجملة والورع والمراقبة. وله تصانيف في الصوفية. صحب بشر بن الحارث وسريّ وذي النون المصري وأبي عبيد البسري ونظراءهم. مات سنة ٢٧٧هـ، وقيل ٢٨٦. مصادر ترجمته: طبقات الصوفية للسلمي، ص ٢٢٨؛ حلية الأولياء لأبي نعيم الإصفهاني، ١٠/٢٤٦؛ الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري، ١/٤١٤؛ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ٤/٢٧٦؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٣/٤١٩؛ مختصر تاريخ دمشق لابن منظور، بيروت، ٣/٢٠٤.

باب الكلام في ذكر القلوب وطهارتها

فأما الكلام في طهارة القلوب فهو أن الله تعالى ذكر القلوب على أوصاف وأنحاء: فمنها قلوب المؤمنين المهديّين، ذكرهم بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللّه صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فهو على نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾[1] وقال: ﴿فمن يرد اللّه أن يهديَه يشرحْ صدْرَه للإسلام﴾[2] وهذا يسمى القلب [١٣أ] المشروح، المنور بتطهير الله تعالى له من الكبر والشرك والنفاق والجحد وسائر العوارض التي تعرض فتمنع عن رؤية الحق لأنّ قلوب أهل الحق ينظر إلى ما توارت في الغيوب بأنوار اليقين عند حقائق الأمور.

وهو معنى ما قال علي بن أبي طالب حين سئل: هل نرى ربنا؟ قال: وكيف نعبد من لم نره!؟ ثم قال: لم تره العيون في الدنيا بكشف العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان[3].

وقال تعالى: ﴿ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رَأَى﴾[4] فأثبت الرؤية للقلب في الدنيا.

وقال ﷺ: «اعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.»[5]

---

١ سورة الزّمر ٢٢/٣٩.

٢ سورة الأنعام ١٢٥/٦.

٣ ما وجدنا هذا القول منقولا عن سيدنا عليّ في المراجع الحديثية ولعله نسب إليه فيما بعد... وقد ورد عند مسلم ٤٦١ باب: في قوله عليه السلام «نور أنّى أراه؟» من حديث أبي ذر، قال: سألت رسول اللّه ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال: «نور أنَّى أراه؟ »

٤ سورة النّجم ١١/٥٣.

٥ قطعة من حديث جبريل وهو معنى الإحسان أخرجه البخاري في الإيمان، ١٩؛ ومسلم في الإيمان، ١.

والقسم الثاني من أقسام القلوب قلوب الأولياء والأخيار، وهي الممتحنة بالتقوى، وهو ما ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ ٱمْتَحَنَ اللهُ قُلوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لهمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1]

والقسم الثالث هي القلوب المفتنة، وهي قلوب الكفار، وذلك مما ذكره في قوله: ﴿ومَنْ يُرِدِ الله فِتْنَته فَلَنْ تَمْلِكَ له مِنَ الله شَيْئًا أولَئِك الَّذينَ لَمْ يُرِدِ الله أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[2]

وقال قوم: القلوب على ضربين: شاهد وغائب، مفتوح ومقفَّل، أشار بذلك إلى قوله: ﴿إن في ذلك لَذِكْرَى لِمَنْ كانَ له قَلْبٌ أو ألقى السمعَ وهُو شَهيدٌ﴾[3] يعني وهو حاضر القلب، وقد يشهد ويسمع، وقد يسمع ولا يشهد؛ وهو صفة القلوب التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾[4] وقال: ﴿إنَّا جَعَلْنا على قُلوبِهِم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهوه وفي آذانِهِمْ وَقْرًا﴾[5]

وقال بعضهم: القلوب ثلاثة: [قلب][6] مشروح وقلب مطروح وقلب مذبوح؛ فالمشروح قلب المؤمن، والمطروح قلب الكافر، والمذبوح قلب الفاسق المذنب.

وسئل الشبلي عن قوله تعالى: ﴿إنّ في ذلك لَذِكْرَى لِمَنْ كان له قَلْبٌ﴾[7] فقال: لمن كان الله قلبَهُ.

---

١ سورة الحجرات ٣/٤٩.
٢ سورة المائدة ٤١/٥.
٣ سورة ق ٣٧/٥٠.
٤ سورة محمّد ٢٤/٤٧.
٥ سورة الكهف ٥٧/١٨.
٦ زيادة عن الأصل لتتميم المعنى.
٧ سورة ق ٣٧/٥٠.

وسئل سهل بن عبد الله التستري عن قلب المؤمن فقال: "قلب المؤمن ربه." أراد بذلك أنه يعتمد ما يُجري الله على قلبه، لا على نفس القلب.

وسئل الشبلي عن قوله ﷺ: «نية المؤمن خير من عمله.»[1] فقال: نية المؤمن ربه، وربه خير له من عمله، أي يصل إلى الخير لا بالنية. لأنه هو الذي يوفق للنية، وهو معنى قولهم: "عرفنا الله بالله." أي؛ بتعريفه عرفناه، وبمعونته وتيسيره عبدناه." إشارة إلى التبري من الحَول والقوة، والاعتراف بموضع النعم من الله تعالى.

١ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، عن أنس وفي إسناده يوسف بن عطية ضعيف، كما قاله ابن دحية. وقال النسائي متروك الحديث، انظر: العجلوني في كشف الخفاء، ٢/٣٢٤-٣٢٥؛ والسخاوي في المقاصد الحسنة، ٧٠١-٧٠٢.

باب في الحكمة ومعناها

أما معنى [١٣ب] الحكمة فمنهم من قال: العلم والعمل.

ومنهم من قال: هو فهم القرآن.

ومنهم من قال: هو النبوة، لتأويل قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الحكمةَ منْ يشاءُ ومَنْ يُؤْتَ الحكمةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1]

والأصل في ذلك أن كل ما أحكم حتى منع من دخول الفساد فيه فهو حكمة، فكل طاعة لله على شرط الصدق والوفاء والإخلاص حكمة، وأفعال الله تعالى كلها حكمة لأنها وقعت على الوجه الذي أراد وعلم، لم يختلف على علمه وإرادته وقوع واقع منها.

ومن الناس من قال: معنى الحكمة معنى العلم. وأنه إذا قيل: فلان حكيم، المراد به: أنه عالم محكِم لأفعاله. ويقال: إن الله تعالى لم يزل حكيما، أي لم يزل عالما. ويقال: إنه لم يزل حكيما، على معنى أنه محكم، وتكون الحكمة من صفات الفعل.

١ سورة البقرة ٢/٢٦٩.

باب في معنى الحزن

أما الكلام في معنى الحزن وصفته فقال: هو انكسار القلب، وخشوعه للأمر الذي يحزن عليه.

وقد روي عن النبيّ ﷺ قال: «ما حَزِنَ قلب عبد مؤمن في الدنيا إلا فرَّحه الله تعالى غدا.»[1]

وروي عنه ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى محب كل قلب حزين.»[2]

فإن قيل: فما هذا الحزن؟ وما صفته؟ وبم[3] يستجلب هذا الحزن؟ وما الدليل على مقامه؟ قيل: بثلاث خصال: فالأول منها: الفكرة في السالفة، ورهبة القدوم على الله تعالى بغير زاد، والثاني: أخذ القلوب بحقوق الله تعالى الواجبة، والفرائض اللازمة، فإن ذلك يورث الأحزان الدائمة، والثالثة: معرفة الخلاف على الله تعالى؛ لأنه ليس من عارف يذكر خلافه على الله تعالى إلا نزلت الأحزان بقلبه؛ إن كان نادما تاركا لما يكره الله تعالى.

وسئل الحارث فقيل له: من أين مخرج ذلك؟ فقال: من علمهم بعلم الله تعالى فيهم أنه قدّر أي في مواطن يكرهها، فهم غير آمنين، لا تقر لهم عين، لا ينشطون في فرح بما غلب على قلوبهم من الأحزان، وعلامة ذلك انكسار جوارحه الظاهرة عن الانبساط لوجود انكسار في باطنه.

---

١ لم نعثر على تخريج لهذا الحديث.

٢ رواه البيهقي في شعب الايمان برقم ٨٨٦، باب معاني المحبة، بلفظ «إن الله يحب..» والحاكم في المستدرك ٣١٦/٤، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وضعفه الذهبي، والألباني في السلسلة الضعيفة برقم ٤٨٣.

٣ وفي الأصل بما.

فقيل: وما علامة الحزن؟ فقال: الكَمَد. وقيل له بم[1] يتزايد الحزن ومن أين يتفاوت الحزن في أحوال المحزونين؟ قال: على قدر المصائب عندهم عظمت الأحزان في قلوبهم، فكلما تجدد خوف الفراق تزايد الحزن.

وسئل الحارث فقيل له: أفيجد المحزون في نفسه حزنه؟ قال: نعم، إذا مزج بملاطفة، فقيل له: وما معنى الملاطفة؟ قال: أن يقرع التنبيه قلبه فيدله على الذي أحزنه. فيرى أن قليلا مما معه من الحزن كثيرا من عطاء مولاه [١٤أ] في الحزن. فإنه هو الذي ابتدأه بالأحزان لطفًا منه، فعندها يكون في نفس حزنه شجى.

فقيل له: فما علامة الشجى؟ فقال: دوام البكاء ممزوجًا بسرور وفرح؛ لغلبة معرفة النعمة بحزنه في الحزن والبكاء. فقيل له: حاله في الظاهر يدل على الشجى في باطنه؟ فقال: نعم، إذا هاج ذلك من القلب ظهرت على اللسان علامة، فيديم ذكر الآية، ويتنعم بذكر نعمائه، والمثل والعظة الحسنة من الحكمة فيجد فيها تنعما، كما قال القائل، شعر:

وينعش قلبي حسن ظني بناعش   فأهدأ ولولا ذاك بحت بأسراري

فقيل له: ما علامة المحزون في الظاهر أمر خلافه؟ فقال: وجود الانقباض عن الانبساط والانقطاع عن فضول الكلام وقلة المبالاة[2] بأمور الدنيا،

١ وفي الأصل بما.

٢ وفي الأصل المبالات.

يشتغل بشأنه وحزنه، شَعثٌ غَبْرٌ منفرد، متوحش غَير متصنّع ولا متزين، كأنه ثكلى في عدتها، لا يلتفت إلى أغيارها وعاداتها؛ كما رُوي عن الحسن أنه كان أطول الناس حزنا، لا يراه أحد إلا ظن أنه حدثت به مصيبة.

وقال عبد الواحد بن زيد: رأيت راهبا قد لبس السواد فقلت: يا راهب ما حملك على لبس السواد؟ فقال: إن الثكلى[1] إذا جزعت أظهرت الحزن، وأنا رجل أصبت بذنوبي فلم لا أبكي؟ فقلت: فمِمّ بكاؤك يا راهب؟ فقال: أوْهِ. ما ذكرت يوما مضى من أجلي فلم أدر ما جعلت فيه من عملي. بكائى لقلة زادي، ومن بعد المفازة، وعقبة أنا صاعدها، لا أدري أين مهبطها، إلى جنة أو إلى نار؟ فقلت له: زدني من هذا الوصف يرحمك الله. قال: نعم، وهو الغالب على قلبه أن يضاعف عليه الأحزان.

كما قال حُميد بن هلال: دخلت مع الحسن البصري على العلاء بن زيد، فقال له الحسن: كيف أنت يا علاء؟ وقد كان علاه الحزن، فقال: واحزناه على الحزن! فقال الحسن: قوموا بنا! فإلى هذا انتهى استقلال الحزن! قال: ودخلت على بعض العوابد وقد صامت حتى اسودت وقامت حتى أقعدت وبكت حتى عميت. فقال رجل منا ممن كان إلى جنبه: ما أشد العمى على من كان بصيرا! فقال له: مه يا فتى، إن عمى القلب عن الله تعالى أشدّ من عمى العينين عن الدنيا، ولوددت أن الله سلبني جوارحي، ووهب لي شيئا من الكآبة والحزن.

١ وفي الأصل ثكلى.

فقال له: صف لي [١٤ب] شيئا من علامات وجود قلبه، فقال: الغالب على قلبه تضاعف الأحزان حتى يستقل حزنه عند حزن المحزونين في الحزن. فقلت له: والمحزون يحزن من بعد حزنه حزنا غير حزنه؟ قال: نعم، يحزن على حزن المحزونين في الحزن. فقلت له: ما معنى هذا؟ فقال: إرادة القلب ومحبته لتواتر الأحزان عليه، حتى لا يبقى عليه منه ذرة. ٥

وقال بعضهم: الخوف والحزن حارسا قلب المؤمن، فإذا خلا قلب المؤمن منهما خرب، كما يخرب المنزل إذا لم يكن له راعٍ ومتفقد؛ فاحذروا غرّة الأمن، وعقلة السرور قبل انكشاف الحال ورفع الحجاب!

باب الكلام في معنى الحب والمحبة وعلامة المحبّين

سئل الحارث فقيل له: ما السبيل إلى محبة الله تعالى؟ قال: ليس لأحد يؤمن بالله إلا وهو يحب الله، ومحبته على قدر إيمانه. فقيل له: فيم[1] تزايد المؤمنون في المحبة ؟ وما أوائلها؟ فقال: ذكر القلب لنعم الله تعالى، ولطفه وبره وأياديه وفضله، وستره ونعمه المتقدمة التي بدايتها من غير عمل استحققناه. ألا ترى أنه ﷺ قال: «جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها.» وقال: «أحبّوا الله لما أسدى إليكم من نعمه.»[2]

فهذا أوائل المحبة وبدايتها، ثم تزيد[3] المحبة بتعليم القلب بذكر الله تعالى له بالإيمان والاختيار في علم القلب، فتتولد المحبة لله منه، ويبعث القلوب على القيام بأمر الله تعالى، والمشارعة إلى طاعته.

فقيل: وكيف تفاوُتُ المحبين لله تعالى في المحبة؟ فقال: على قدر العناية، وكثرة المعرفة، والصدق في المطالب، وقوة الرغبة في الرغائب؛ حتى يؤثر محبة الله تعالى على كل محبوب، ويصير ذلك إلى المطلوب والمنَى.

وسئل بعضهم عن حقيقة المحبة، فقال: هي الميل الدائم بالقلب الهائم.

وقال بعضهم: حقيقة المحبة إيثار المحبوب على جميع المصحوب.

وقال بعضهم: حقيقة المحبة موافقة الحبيب في المشهد والمغيب.

---

١ وفي الأصل فيما.

٢ أخرجه أبو نعيم في الحلية، ٤/١٢١؛ والعجلوني في كشف الخفاء، ١/٣٣٠؛ والسخاوي في المقاصد الحسنة، ٢٨٠.

٣ في الأصل: يزيد.

وقال آخرون: المحبة محو المحب من صفاته وإيثار المحبوب بذاته.

وقال بعضهم: المحبة استهلاك إذا استوفت وحصور فيها إذا أنفت.

وقال آخرون: المحبة حلاوة في القلوب من المحبوب.

وقال بعضهم: المحبة إسقاط المحبة من المحبّ، وإيثار المحبوب فيما يحبّ.　٥

وقال: سئل بعضهم عن الحبّ [١٥أ] فقال: خفي ولا يرى، وظاهر ولا يخفى، فهو كامن كمون النار في الحجر إن قدحته أورى، وإن تركته توارى.

وسئل الجنيد عن حقيقة المحبة فقال: صدق الإيثار على ما سِوَى الله تعالى.

وقال بعضهم: حقيقة المحبة إيثار الحق على المنى.

١٠　وقال الحارث حين سئل عن المحبة: هي مواطأة القلب لمراد الرب. فسئل عن مواطأة القلب فقال: أن يوافق القلب فيحب ما أحب الله تعالى، ويكره ما كره الله تعالى. فقيل له: فما الغالب على قلب المحب لله تعالى في معاملته؟ فقال: أن لا يُؤْثر على الله غير الله بدوام المناجاة[١]، وعذوبة الذكر، وكثرة السهر، لا يستريح.

١٥　وسئل الخوّاص عن حقيقة المحبة، فقال: محو الإرادة، واحتراق جميع الصفات والحاجات.

١　وفي الأصل المناجات.

وسئل الجنيد عن المحبة فقال: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب. أشاروا إلى معنى قوله تعالى: «فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ عَيْنَيْهِ الّتِي يُبصِرُ بها، وسَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به،[١] ويَدَهُ التي يَبْطِشُ بها.»[٢]

وقال بعضهم: المحبة والحُب اسمان بمعنى واحد، والحِبُّ والحبيب واحد.

٥ وقال بعضهم: الحُب اسم لصفات المودة لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَب الأسنان، والحَباب شيء يطفو أعلى الماء عند المطر الشديد، والحباب حبّة نقيّة بيضاء.

وقال بعضهم: الحُبّ مأخوذ من قولهم حُباب؛ لأنّ حَباب الماء معظمة. والعرب تقول "حَبابك أن تفعلَ كذا" أي غايتك بفتح الحاء. فكأنه قيل للمحب

١٠ "حِبّ"؛ لأنه غاية معظم ما في القلب من المهمات.

وقال بعضهم: اشتقاق الحب من اللزوم والثبات الذي لا برح معه، كما يقال أَحبّ البعيرُ إحبابا، فهو محبّ وهو أن يبرك فلا يثور.

وقال: أبو محمّد في تأويل قوله تعالى ﴿أحببْتُ حُبَّ الخير﴾[٣] لَصِقْتُ بالأرض لحبّ الخير حتى فاتتني الصلاة.

١٥ وقال بعضهم: الحُبّ مأخوذ من القلق، لأن العرب تسمّي القرط حُبّا.

---

١ وفي المخطوطة وسَمْعَهُ التي يَسْمَعُ بها.

٢ قطعة من الحديث القدسي المشهور، أخرجه البخاري في الرقاق، ٣٨؛ وابن ماجة في الفتن، ١٦؛ وأحمد في مسنده، ٦/٢٥٦.

٣ سورة ص ٣٨/٣٢.

وقال القائل:

تبيت الحية النضناض منه مكان الحُب يستمع السرارا [١]

تسمى القرط حُبًّا إمّا للزومه الأذن وإمّا لقلقه واضطرابه.

وقال بعضهم: هو مأخوذ من الحَب وهو جمع حَبّة، وحَبة القلب ما به قِوامه، وهي للقلب بمنزلة القلب لسائر الأعضاء.

ويقال أيضا: هو مأخوذ من الحبة، وهي بزور الصحراء يسمى الحبّ حبا، لأنه لُباب الحُباب، كما أن الحَب لُباب النبات، والحَب والحُب كالعَمر والعُمر والسَّدّ والسُّدّ بمعنى واحد[٢١٥]

وقال بعضهم: أصل الحب الخشبات الأربع، التي ترتفع عليها الجرّة ذات العروتَين، فلهذا سُمِّيَ حبّا، لأنه يحتمل عن محبوبه كل عز وذل، ومنع وعطاء، لا يرضي لنفسه غيرما يرضى له محبوبه.

وقيل أيضا: مأخوذة من الحُب الذي هو الخابية، لأنه يمسِك ما فيها، ويستوفيه لا يدخلها شيء إلا خرج عنها بقدر ما دخل فيها، ولذلك يقال: لا يجتمع حُبّان في قلب واحد، فإذا استوفى مراد محبوبه قيل له مُحب.

وقال بعضهم: وقد سئل عن الفرق بين المعرفة والمحبة فقال: المعرفة نور يهتدي به المحب إلى محبوبه، ويحمله على الجد، والانكماش في موافقته، وطاعته.

---

١ البيت من بحر الوافر، والقائل الراعي النميري. انظر المعاني الكبير لابن قتيبة ص ١٥٧.

وقال: المحبة نار تحرق كل شيء فيه سوى مراد محبوبه.

وقال بعضهم: حقيقة المعرفة مشاهدة المنّة لله دون من سواه، وحقيقة المحبة إيثار الله تعالى على سائر ما تهواه.

وسئل بعضهم عن علامة أهل المحبة فقال: روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن أبا زرين قال: «يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: أن لا يكون شيء أحب إليك من الله، وأن تؤخذ فتُحرَق بالنار أحبّ إليك من أن تشرك بالله تعالى.»[1]

وقد اشتمل هذا الخبر على جميع أركان المحبة، وذلك أن المحبين ثلاثة: ولكل واحد منهم حال مخصوصة:

فالحالة الأولى من المحبة : محبة العامة، يتولد ذلك من إحسان الله تعالى إليهم، وعطفه عليهم، كما روي في الخبر عنه ﷺ أنه قال: «أحبوا الله لما أسدى إليكم من نعمه.»[2] وشرط هذه الحالة: سئل سهل بن عبد الله عن المحبة فقال: صفاء الودّ مع دوام الذكر؛ لأنّ من أحب شيئا أكثر ذكرَه.

وسئل سمنون عن المحبة، فقال: التزام الموافقة، واتباع سنة رسول الله تعالى ﷺ مع دوام الاستشهاد بذكر الله تعالى، وحلاوة المناجاة لله تعالى.

وسئل الحسن بن عليّ رضي الله عنهما عن المحبة، فقال: استيناد القلوب والفناء على

---

١ روى أحمد (المسند ٤/١١ ط الرسالة) عن أبي رزين العقيلي من حديث يقرب من هذا اللفظ، وجاء فيه «... يا رسول الله، وما الإيمان ؟ قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله؛ وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما، وأن تحرق بالنار أحب إليك من أن تشرك بالله، وأن تحب غير ذي نسب لا تحبه إلا لله عز وجل، فإذا كنت كذلك فقد دخل حب الإيمان في قلبك كما دخل حب الماء للظمآن في اليوم القائظ... الحديث. وفي إسناده سليمان بن موسى وقد وثقه ابن معين وأبو حاتم وضعفه آخرون. انظر مجمع الزوائد للهيتمي ١/٦٠.

٢ لم نعثر على تخريج له.

المحبوب وإيثار طاعته والموافقة له.

وقال بعضهم: والحبيب يفعل ما يشاء.

والحالة الثانية من المحبة يقع من نظر القلب إلى غناء الله، وجلاله تعالى وعظمته وعلمه وقدرته: وهو حب الصادقين المتحققين. وشرطها ما حكي عن أبي الحسين النوري أنه سئل عن المحبة، فقال: هتك الأستار، وكشف الأسرار. ٥

وأما الحالة الثالثة فهي محبة الصادقين والعارفين، تولدت من نظرهم ومعرفتهم [١٦أ] بقديم حب الله لهم بلا علة.

وصفة هذه المحبة: ما سئل ذو النون فقيل: ما المحبة الصافية التي لا كدورة فيها؟ فقال: حب الله الصافي الذي لا يجوز فيه سقوط المحبة عن القلب والجوارح، حتى لا يكون فيها المحبة، وتكون[١] الأشياء بالله ولله. ١٠

وقال بعضهم: علامة ذلك لا يصح له حتى يخرج عن رؤية المحبة، لا رؤية المحبوب، بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب بالغيب، ولم يكن هو.

وقال الجنيدُ: دفع إليّ سري السقطي رُقعة وقال: " احفظ هذه الرقعة؛ فإنها خير لك من سبعمائة قضية أو حديث متعلّق." فإذا فيها، شعر:

ولما شكوتُ الحبّ قالتْ كذبتَني	فمالي أرى الأعضاء منك كواسيا ١٥
فما الحبُّ حتى يلصق الكبد الحشا	وتَذْبُلَ حتى لا تجيب المناديا
وتنحل حتى لا يبقي لك الهوى	سوى مُقلةً تبكي بها وتُناجيا

وقال النوري، شعر:

لو ذاقت الأرض حب الله لاشتغلت	أشجارها بالهوى فيها عن الثمر

١ وفي الأصل يكون.

وسئل ابن عطاء عن المحبة فقال: أغصان تُغرس في القلب، فيثمر على قدر العقول. وقال: شعر:

غرستُ لأهل الحب غصنا من الهوى   ولم يك يدري ما الهوى أحد قبلي

فأورق أغصانا وأينع صَبوةً   وأعقب أحزانا من الثمر المُقلي

٥ فكل جميع العاشقين هواهم   إذا نسبوه كان من ذلك الأصل

وقال جعفر: رأيت سمنون يتكلم في المحبة، فسقط طير على الناس، ولا يزال يقع من هذا على هذا، ومن هذا على هذا، وله خفقان حتى سقط ميتًا.

وقال ذو النون في صفة المحبين: لما طالعوا الجمال والبهاء صار ما دونه عندهم أقل من الهباء، شربوا بكأس الوداد، فضاقت عليهم الأرض والبلاد.

١٠ وسئل النوري : "هل للحب نهاية؟" فقال، شعر:

ليس للحب غاية في التناهي   غالب الحب حالهم في التناهي

وقال: سألت جعفر عن المحبة، فقال: لها ظاهر وباطن؛ فظاهرها اتّباع المحبوب، وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شيء، ولا يبقي عليه بقية لغيره، ولا لنفسه.

١٥ وعن ابن مسروق قال: رأيت سمنون يتكلم في المحبة في المسجد، فتكسرت قناديل [١٦ب] المسجد كلها.

وقال الشبلي: أول الحبّ مشوب بالمزاح، فإذا تمكن (من)[١] القلب قَتَل.

١ كلمة من ليس موجودة في الأصل.

باب الكلام في معنى محبة اللّه تعالى

سئل الحارث عن محبة اللّه تعالى للعبد - وهو القسم الثاني من المحبة - فقال: سألت عن شيء غاب عن أكثر القلوب. إن علامة محبة اللّه تعالى للعبد أن يتولى اللّه سياسة همومه؛ فيكون جميع أحواله هو المختار لها، فلا يعترض عليها حوادث القطع، فإن اللّه هو المتولي لها، والحافظ أخلاقه على السماحة، وجوارحه على الموافقة له، يحثه بالتهدد والزجر. الدليل على ذلك خبر النبيّ ﷺ: «إذا أحب اللّه عبدا جعل له واعظا من نفسه، وزاجرا من قلبه يأمره وينهاه.»[1]

قلت له زدني من علامات محبة اللّه العبد، قال: ليس شيء أحب إلى اللّه تعالى من أداء الفرائض، بمسارعة من القلب والجوارح، والمحافظة عليها، ثم علامته من بعد ذلك كثرة النوافل، كما قال ﷺ: «يقول اللّه تعالى ما تقرّب عبدى بشيء أحب إلى من أداء ما افترضت عليه، وإن عبدي لا يزال يتقرب إليّ بالنوافل حتى أَحبّه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً، إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته.»[2]

نعم، يا فتى، هؤلاء القوم أذاقهم اللّه طيب طعام محبّته، ونعّمهم بدوام العذوبة في مناجاته، فيقطعهم ذلك عن الشهوات، وجانبوا اللذات، وداوَموا في خدمة من له الأرضون والسماوات، عيشهم سليم، وغناهم مقيم، في قلوبهم يقيم[3]،

١ أخرجه العجلوني في كشف الخفاء، ١/٧٨. وقال: رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أم سلمة.

٢ أخرجه البخاري في الرقاق، ٣٨؛ وابن ماجة في الفتن، ١٦؛ وأحمد في مسنده، ٦/٢٥٦.

٣ «يقيم» هكذا في الأصل ولعله :يقين.

كأنهم نظروا بأبصار القلوب إلى حُجُب الغيوب، فقطعوا عن كل محبوب، وصار اللّه تعالى هو المُنى المطلوب.

نعم، يا فتى، عند ذلك غابت عن قلوبهم أسباب الفتنة بدواهيها، وظهرت أسباب المعرفة بها، فصار مطيتهم إليه الرغبة، وسائقهم إليه الرهبة، وحاديهم الشوق من المحبّة، حتى أدخلهم في رق عبوديته، وبصّرهم بتعظيم عزّ ربوبيته، فليس يلحقهم فترة في نية، ولا وهن في عزم، ولا ضعف في حزم، ولا تأويل في رخصة، ولا ميل إلى داعي عزة، وهذا هو المراد بالمحبّة، والمطلوب بالمنقبة.

وقال جعفر: إذا أحبّك سترك[1] عليك، وإذا أحببته شهرك ونادى عليك.

وقال أيضا: إذا أحبك أنامك، وإذا أحببته أقامك، وإذا أحبك دلّلك وعافاك، وإذا أحببته أتعبك وأبلاك، هذا هو الفرق بين المراد بمحبة وبين المريد لها.

وسئل الحارث عن خوف أهل محبة اللّه، قيل له: كيف [١٧أ] أخاف ممن أحبه؟ قال: إن المحب لله تعالى قد علم أن اللّه تعالى يحب منه الخوف، فلزمه الخوف ضرورة؛ لأنه تعالى يحبّ من المحبّين له الخوف منه، ولو لم يخف المحبّ لله تعالى لم يكن موافقا له؛ لأن الموافقة اتباع محبّة الله ولو سقط عنه الخوف، وقع في الأمن، ودخل في المحظور، وقد قال اللّه تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلا القَوْمُ الخَاسِرونَ﴾[2]

---

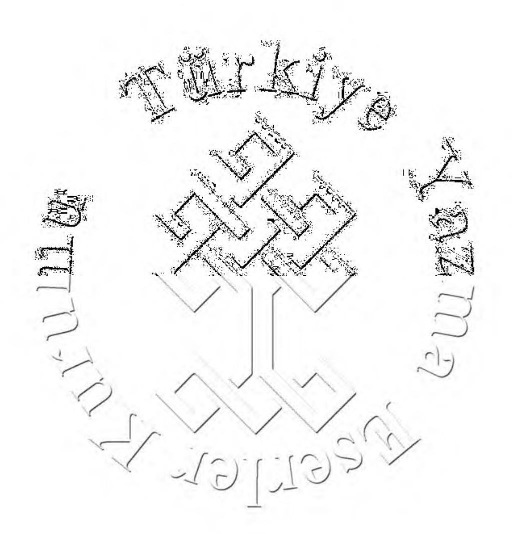
١ في الأصل: ستره.

٢ سورة الأعراف ٧/٩٩.

وقال بعض الحكماء: ما تلذّذ المتلذذون بشيء ألذّ من حبّ الله، ومحبّة ذكر الله تعالى.

وكان يقول بعض المتقدمين في كلامه: إذا سَئِم الطالبون من طلبهم فلم يسأم محبوبك من ذكرك ومناجاتك.

ه قال تعالى: ﴿الذين آمنوا وتَطْمَئِنُّ قُلوبُهم بِذِكْرِ الله﴾[1] الآية.



---

1 سورة الرّعد ٢٨/١٣.

باب ذكر معرفة الحق والحقيقة

أما الكلام في معنى الحق والحقيقة، فإن الحق هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿ذلك بِأَنَّ الله هو الحَقُّ﴾[1] وقد قيل في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَو اتَّبَعَ الحقُّ أَهْواءَهُم﴾[2]: إن الحق هو الله.

٥ ولأبي سعيد الخراز في بعض كلامه، قال: عبد موقوف مع الحق للحق بالحق، يعني موقوف مع الله بالله لله، فأما الحقوق فالمراد بذلك المقامات والأحوال والعقود والعبادات.

وقال بعضهم: إذا ظهرت الحقوق غابت الحظوظ، وإذا ظهرت الحظوظ غابت الحقوق، ومعنى الحظوظ حظوظ النفس والبشرية، وهي لا تجتمع مع ١٠ الحقوق؛ لأنها لا تتناهى[3].

فأما معنى التحقيق: فهو تكلف العبد لاستدعاء الحقيقة جهده وطاقته.

وقال ذو النون: قلت لبعض الحكماء الذين لقيتهم: ما وقَّفَ سالكَ الطريق في فجاج المضيق؟ فقال: من ضعف دعائم التصديق، وأخذ القلوب بالتحقيق، فأما التحقيق فهو التخصيص بهذه الحالة.

١٥ وأما الحقيقة: فمعناها وقوف القلب بدوام الانتصاب بين يدي من آمن به، فلو دَاخَل القلبَ شكٌّ حتى يكون به واقفا، بين يديه واقفا، لبطل الإيمان، وهو قوله ﷺ لحارثة: «لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقال:

---

١ سورة الحجّ ٦٢/٢٢.
٢ سورة المؤمنون ٧١/٢٣.
٣ وفي الأصل يتناها.

عزفت نفسى عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون، وإلى أهل النار كيف يتعادون.»[1] فعبر عن مشاهدة قلبه ودوام وقوفه وانتصابه بين يدي الله تعالى حقيقة لما آمن به، حتى كان رأي العين آية الحقائق أن تدع القلوب مقالة التأويل.

٥ وقال بعضهم: الحقائق ترك العلائق، ويجب على المتحقق أن يكون قاطعا لكل تعليق [١٧ب] وكل شيء من الصفات يحتاج إلى الحقيقة؛ لأنها تجري في كل صفة.

ويقال: الحقيقة كون الشيء لله تعالى، وكون الشيء بالله، وكون الشيء عند الله.

وقال بعضهم: الحقيقة هي التي لا فيها[2] مضادها ولا يقوم منافيها بل تفني

١٠ عند إشارتها أضدادها. وقد كان النبي ﷺ يشير إلى هذا المعنى في وقت دخوله مكة، يقول بقضيبه إلى الأصنام فتخرّ ساقطة، لقوله تعالى: «جاءَ الحَقُّ وزَهَقَ الباطِلُ.»[3]

ويقال: لكل حق حقيقة فحقيقة الحق كون ما يقتضيه الحق على وجهه.

---

١ أخرجه عبد الله بن المبارك في الزهد، ١٠٦؛ وعبد الرزّاق في المصنف، ١٢٩/١١؛ والطبراني في المعجم الكبير، ٢٦٦٢/٣–٢٦٦٣، والبيهقي في شعب الإيمان، ٣٦٢/٢.

٢ في الأصل: لافيها فيها.

٣ سورة الإسراء ٨١/١٧.

باب الكلام في معنى التقوى

قال بعضهم: التقوى أول صفة من صفات أولياء الله تعالى، وهي قاعدة صفاتهم ونعوتهم، وأعلى صفة من صفاتهم؛ بل هي في كل صفة داخلة، وبها تصلح الصفات، وقد جعلها مبتدأ صفاتهم ونعوتهم، فبدأ بها كتابه. وقال تعالى: ﴿أَلمّ ذَلِكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًا لِلْمُتَّقِين﴾[1]، ثم ذكرهم بصفاتهم، وقال: ﴿الَّذينَ يُؤْمِنون بالغَيْبِ﴾[2] الآية.

وقال بعضهم: معنى التقوى امتناع الأسرار عن المحرمات والشبهات، فإذا أذعن له السرّ وانقاد، دعته إلى ترك الطيبات والمحلّلات[3]، فإذا تابعه على ذلك نبّهته على ترك التعليقات، حتى إنه لتحذّره النظر إلى الكون على جهة التعليق، فيحميه عن الكل، ويدعوه إلى رب الكل، حتى إذا أذعن لها في جميع ذلك، وانقطع عن كل تعليق، حذرته النظر إلى الحق على جهة الغيرة، فالتقوى في أول مقام، وفي آخر مقام، وفي أول نَفَس، وفي آخر نَفَس، حتى إذا لاحظ الحقّ بسرّه، ناجته بالتقوى بلسان التفريد، فيقول: إيَّاك ثم إيَّاك، وهذا كما قال القائل، شعر:

ما إن ذكرتُك إلا همَّ يلعَنُني   سرّي وذكري وهَمّي عند ذكراكا

حتى كأنَّ رقيبًا منك يهتف بي   إياك ويحكَ والتذكارَ إيَّاكا[4]

---

١ سورة البقرة ٢/٢-١.

٢ سورة البقرة ٢/٣.

٣ وفي الأصل المحلات.

٤ البيت من بحر البسيط. ولم نعثر على قائله.

وقال بعضهم: التقوى رقيب المولى في قلوب أوليائه وأصفيائه، يحثهم على الارتقاء في الدرجات، ويحضهم على ترك الوقوف في المقامات، لا يتركهم لحظة يقرون، بل يساريهم السير إلى الحق، ولا يمهلهم نقرة طائر يسكنون.

واعلم أن التقوى هي الاتّقاء، مأخوذ من وقاية الشيء، وهو أن جعل نفسه ٥ وقاية لنفسه، فيتجنب هواه ومناه في الحال؛ ليصل إلى راحة في المآل.

وقال بعضهم: للتقوى ثلاث درجات: فأولها الشرك والكفر والنفاق بالله قولا وعقدا، وذلك أول باب في الهداية، فإذا اتقى جملة المحرمات صار بها من أهل الولاية، وإذا اتقى تقواه صار أمره غاية ونهاية.

وسئل الحارث عن التقوى ومعناها، فقال: التقوى اسم [١٨أ] وله معنى، وهو ١٠ مشتق من الخوف، ومعناه انتقال القلب والجوارح الظاهرة والباطنة مما ينهى الله تعالى عنه إلى ما يأمر به، قال الله تعالى:﴿إنّ المُتَّقين في جَناتٍ وعُيون﴾[١] و﴿في مَقامٍ أَمينٍ﴾[٢]

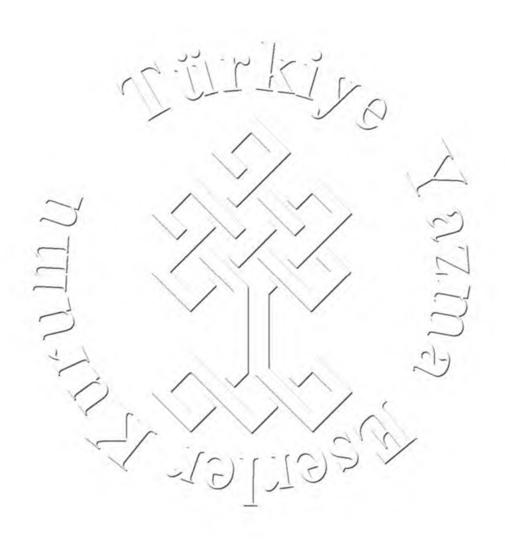
قال قوم: هم الذين اتقوا الشرك.

وقال قوم: هم الذين اتقوا على أعمالهم وقلوبهم وجوارحهم الآفات من ١٥ الرياء والسمعة والإعجاب، واحترزوا من ذلك فاتقوا دواعي الباطل.

---

١ سورة الحجر ١٥/٤٥.
٢ سورة الدخان ٤٤/٥١.

ثم سئل أيضًا، فقيل له: ما الذي تولد منه التقوى؟ قال: تعاقب حالات، وتزايد الخوف؛ فإن منه يتولد التقوى. فقيل له: ما ضد الخوف؟ قال: الأمن. فقيل له: وما الأمن؟ قال: الغفلة. قيل له: وما سبب الغفلة؟ قال الميل إلى الدنيا، والركون إليها، وقلة المعرفة بكون الآفات.



باب الذكر وحقيقته وأقسامه وصفة الذاكر

سئل عن حقيقة الذكر، فقال: الذكر أن يصير الفؤاد فارغا من الكل، حتى لا يبقى فيه شيء غير الله تعالى، فيصير القلب بيت الحق، ويمتلئ منه، فيخرج الذكر عن غير قصد ولا تدبير، بل يكون الذاكر على وجل من الذكر غيرة من المذكورات بذكره، ولكن الحق استولى على الفؤاد فامتلكه، وجعله محل إشارته، فخرج الذكر من غير تكلّف؛ هذا كما قال الله تعالى: ﴿وأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ موسى فارِغًا إن كادت لَتُبْدِي به﴾[1] أي بذكر موسى من غير قصد منها لذكره ولا تدبيره.

وقال بعضهم: الذكر إذا كان حقيقة فهو أن يكون متولدا من غير ذكر الله تعالى له، ولا يعتقبه نسيان.

وقال بعضهم: أحسن الأذكار ما هيجته الأخطار[2] الواردة من الملك الجبار، فيخفى عن الاشتهار، ويكمن في محل الأسرار، ويحجب عن الرغائب والاختيار.

وقال بعضهم: صدق الذكر ترك الذكر في الذكر.

وقال بعضهم: أشغل الذكر ترك ما شاغل عن الذكر، وعلامة الصادق في صدقه أن يذكر في الذكر فضله، ويذكر في الغفلة عدله.

---

١ سورة القصص ١٠/٢٨.

٢ في الأصل: الأخطاء.

وقال بعضهم: جملة الذكر على خمسة أنواع: ذكر هو فرض، وذكر هو فضل، وذكر هو قربة، وذكر هو طهارة، وذكر هو حقيقة. فأما الفريضة فالذكر عند الأمر والنهي، وأما الفضيلة فذكر اللسان، وأما القربة فذكر الأفعال، وأما الطهارة فذكر الأخلاق، وأما الحقيقة فقطع الأسباب.

٥ وكان الشبلي يقول: الذكر طرد الغفلة، وكان يزجر عن الذكر ويهرب منه، لغفلة الذاكر عن المذكور في حال الذكر.

وقال بعضهم: حقيقة الذكر العجز عن الذكر.

وقيل: لم يَذكُرِ الله عبدٌ إلا عند الغفلة، لولا الغفلة [١٨ب] لم يقدر على الذكر؛ كما قيل: لو علم اللسان مَن ذكر لجفّ في الحنك، ويحقق ذلك قوله

١٠ تعالى: ﴿فلمّا تَجلَّى رَبُّهُ للْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً﴾[1] ولو تجلّى القلب لذِكْر الله لانصدع كما تدكدك الجبل للتجلّي.

وقال بعضهم: الذكر ذكران: ذكر في الذكر، وذكر في الغفلة. فالذكر في الذكر: أن تذكر في الذكر منّته وفضله، وتارة قسمته وعدله، فتستغيث بفضله على عدله، ولا تنسَى في كلّ حال فعله.

١٥ والشكر نوع من الذكر، وروي عن عمر بن عبد العزيز قال: ذكر النعم شُكْرُها.

---

١ سورة الأعراف ٧/١٤٣.

قال بعضهم: معناه :ذكره في حالتي السراء والضراء حتى لا يزول عن ذكره في الأحوال كلها، وروي في الخبر عن النبي ﷺ: «تعرّفْ إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»[1] أي تعرف في الرخاء بالشكر، وذكر الآلاء يعرفْك في الشدّة بالعصمة وتوفير الرجاء بالله تعالى ﴿واذْكُرْ رَبَّك إذا نَسيتَ﴾[2] وقال بعضهم: معناه إذا نسيت كل شيء سوى الله فاذكره؛ لأنّ ذكرك[3] له لا يصح مع ذكرك لغيره.

ومنهم من قال: معناه لا تنسه حتى تذكره، فإن الذكر لا يكون إلا عن نسيان، كما قيل: وكيف يذكره من ليس ينساه؟

وقال بعضهم: الذكر على ضربين: دائم ومؤقّت؛ فالدائم ذكر القلب، وطرد الغفلة والنسيان. وذلك على وجوه:

فتارة تذكره بعظمته، فيتولد منه الهيبة والإجلال. وتارة تذكره بقدرته وغناه، فيتولد منه الخوف والحزن، وتارة تذكره بالفضل والرحمة والجود والكرم، فيتولد منه الرضا.

وتارة تذكره وحده بالنظر إليه، فيتولد منه الشوق.

وتارة تذكّره بأنه هو الذي له الملك والخلق والأمر، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فيتولد منه الصبر.

١ أخرجه العجلوني في كشف الخفاء، ٣٠٧/١؛ والسخاوي في مقاصد الحسنة، ٢٥٦.
٢ سورة الكهف ٢٤/١٨.
٣ في الأصل ذكري.

وتارة تذكره بأنه هو الكافي للمهمات، المتكفل بأرزاق خلقه وإيصالها إلى ذوي الحاجات؛ فيتولد منه التوكل.

وتارة تذكر ما نَصب من الحجج، والعلامات، والشواهد، والآيات؛ فيتولد منه رؤية اليقين.

٥ وتارة تذكر ما يرجع إليه مفاتيح الأمور ومباديها، أنها ظهرت منه، وإليه تعود[١]، فيغنى عن جميع ذلك، فيتولد منه فناؤه عن نفسه، وبقاؤه بربّه.

وكلّ نوع من الطاعة والعبادة، فهو ذكر على الحقيقة؛ لأنه لا يصح طاعة ولا عبادة إلا بنية؛ والنية هي الذكر بالقلب، وأن يعلم أنه هو الذي افترض عليه هذه الطاعة، وأمن بها، وأنه هو المقصود فيها [١٩أ] بالطاعة والعبادة، وكل فعل

١٠ يخلو من ذلك فهو داخل في معنى ما قاله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلين الَّذين هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهون﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿لا تَقْرَبوا الصَّلاةَ وأَنْتُمْ سُكارى﴾[٣] الآية.

وأما الذكر المؤقت: فهو العبادات المؤقتة، وذلك بالجوارح، كالقراءة في وقتها، والصلوات في أوقاتها، والصوم والزكاة والحج، وسائر الفرائض المؤقتة من أعمال الجوارح.

---

١ في الأصل: يعود.

٢ سورة الماعون ١٠٧/٥-٤.

٣ سورة النّساء ٤٣/٤.

باب التوكّل

فأما الكلام في التوكّل، قال قوم: إن التوكل هو الاعتماد على الحق، والتخلي من الخلق.

وقال قوم: حقيقة التوكل الانخلاء من القوة والحول، والسكون إلى اللّه تعالى بالقول والفعل في عقد الإيمان لا في المأكول والمشروب.

وقال آخرون: هو الثقة بالوعد، وترك التدبير للغد.

وقال آخرون: التوكل هو التفويض لأمر اللّه تعالى، والرضا بمراد اللّه تعالى.

وقال آخرون: هو الاستسلام لجريان القضاء، وخفض الجوارح بحكم الرضا.

وقال آخرون: هو الاسترسال بين يدي الجبار ومنابذة السعي في جميع الديار.

وقال بعضهم: هو إزالة الوحشة من الأسرار، وقطع الطمع من الأغيار.

وقال بعضهم: هو خمود السرّ عن رؤية الكل، وشهود الحق بعين التفضل.

وقال بعضهم: هو الثقة بما في يد اللّه، واليأس مما في أيدي الناس.

وقال قوم: هو الغنى عن كل شيء من الدنيا، والغنى بالمغني.

وقالت طائفة: "التوكّل هو الرضا." وإليه ذهب البصريون.

وقال بعضهم: هو سكون القلب عن الاضطراب بما ضمن الوكيل.

ورُوِي عن إبراهيم الخليل ﷺ: أنه لما وضع في المنجنيق وقد اضطرمتْ له النيرانُ، فجاءت الملائكة في عظيم صورها، فقالوا: هل لك إلينا من حاجة؟ قال لهم: أما إليكم فلا. قالوا: فإلى الله؟ قال: أنا بعين الله. قالوا: فسله أن يكشف ما بك. فقال: أحبّ الأمرين إليّ أحبّهما إليه.[١]

٥ وقال آخر: التوكل فراغ السر عن التفكر للتقاضي في طلب الرزق.

وللتفكّر أربع دعائم:

منها الاستخارة والتفويض والتبرّي والقناعة.

وقال بعضهم: التوكل الاكتفاء من الله بالله. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على الله فَهُوَ حَسْبُه﴾[٢]

١٠ وقال بعضهم: التوكّل النظر من السبب إلى المسبب.

وقال بعضهم: هو استشراف السرّ بملاحظة عين المعرفة، وهو على خَفيّ غيب المقدورات من الأقسام، واعتقاده حقيقة اليقين بمعاني مذاهب المعرفة أنها قيومية، لا يقدح فيها انتقاض ولا فسخ.

وسئل الحارث عن التوكّل فقال: [١٩ب] حقيقة التوكّل هو الاعتماد على

١٥ الله تعالى بإزالة الطمع عمن سواه، وترك تدبير النفس في الأغذية، والاستغناء بالكفاية، وموافقة القلب لمراد الربّ، والقعود في ظلّ العبودية، والالتجاء إلى الله تعالى.

---

١ لم نعثر على تخريج صحيح لهذا الخبر كله عن سيدنا إبراهيم عليه السلام.

٢ سورة الطلاق ٣/٦٥.

فقيل له: ما الذي يقوّي التوكل؟ قال: ثلاث خصال: الأولى منها: حُسن الظن بالّله، والثانية: إلقاء التهم عن الله تعالى، والثالثة الرضا عنه تعالى فيما جرى به التدبير. فقيل له: وبماذا يلحق بهذه المنزلة؟ فقال: بصفاء اليقين يا فتى وتمامه، فإن اليقين إذا تم سمّي توكلا.

٥ قال ذو النون: المقامات سبعة عشر مقاما: أدناها الإجابة، وأعلاها صدق التوكل،

وقال الحارث: الناس متفاوتون في توكلهم على قدر إيمانهم، وقوة علومهم، والخاصة تفضُل العامة بدوام سكون القلب عن الاضطراب، والهدوء عن الحركة، حتى استراحوا من عذاب الحرص، وفكوا من أسر الطمع، وخرجوا ١٠ من ضيق طول الأمل، والذي يتولد ذلك حالتان: أحداهما :دوام لزوم القلب المعرفة، والاعتماد على الله في ترك الحيلة، والثانية :كثرة الممارسة حتى يألفها إلفًا، ويختارها اختيارًا.

وكان أبو حازم يقول: الدنيا شيئان: شيء لي، وشيء لغيري. فما كان لي لو طلبته بحيلة أهل السماء والأرض لم يأتني قبل أجله. وما كان لغيري لم اَرْجُهُ ١٥ فيما مضى، ولا أَرجُوه فيما بقي. إن رزقي يُمنَع من غيري، كما يُمنَع رزق غيري مني. ففي أيّ هذين أكدّر أيامي[١] وأضيع عمري؟. شعر:

اترك الناس فكلٌّ مشغلة

قد بخل الناس بمثل خردلة

---

١ استنادا إلى ما جاء في الحلية ١٠/١٠٤.

لا تسأل الناس

وسل من أنت له[1]

وعن النباجي قال: طمعت يوما في شيء من أمور الدنيا، فغلبتني عيناي فسمعت هاتفا يهتف ويقول: يا فتى، لا يجمل بالحق المريد إذا كان يجد عند الله ما يريد، أن يركن بقلبه إلى العبيد.

وسئل الحارث عن قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على اللّه فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[2] قال: حسبه يعني [...][3] :بشيء في كل شيء أن يكل عليه.

وسئل الحارث فقيل له: هل يقطع المتوكل الأسباب التي تسبق توكله؟ وهي التي فيها الحرص والمكابدة على الدنيا، وشغله عن دوام السكون، وتزيد في الاضطراب، ويقوى خوف الفوت وهي الأسباب التي تستعبده وتُتعبه فتلك التي يؤمر بقطعها حتى يستريح بروح اليقين [٢٠] ويتفرج بحياة الاستغناء.

فقيل له: وما علامة سكون المتوكل؟ فقال: أن يحركه إزعاج المستبطئ فيما ضمن له من رزقه ولا يلحقه فترة المتواني عن فرضه، مقبلٌ إليه تعالى بقلبه، ناظرٌ بعلمه إلى مجاري قدرته؛ حسن عمله بحسن تدبير الله له، فعندها أسقط عن قلبه اختياره لنفسه، ورضي بما اختار الله تعالى له.

---

١ الأبيات من الرجز لعبد الله النباجي. انظر كتاب «العزلة» لأبي سليمان الخطابي البستي. دار ابن كثير بيروت، ص ١٨٠.

٢ سورة الطلاق ٦٥/٣.

٣ هاهنا كلمة في المخطوط لم تتيسّر قراءتها.

فقيل له: فهل يُنقِص من توكله شيئا إذا قصد إلى أخ أو صديق لسد جَوعة؟ فقال: لا؛ لقوله تعالى: ﴿أو صديقكم لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ﴾[1] الآية. وذهب النبي ﷺ: «وأبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- إلى أبي الهيثم حيث قال: ما الذي أخرجكم؟ فقال: الجوع. فقال الرسول ﷺ: «أخرجني الذي أخرجكما. مُرُّوا بنا إلى بيت أبي الهيثم، فكلوا واشربوا» ولم يشنهم ذلك ولا نقض توكلهم.[2]

فأما من ذهب من طريق الأطماع لخوف الفوت، واستبطاء الزمان، وقلة معرفته بذهابه، فذلك نقض عن حالة السكون، وعلامة ذلك أن يضطرب عند الجوع، ويصير الاستشراف له طمعا.

فقيل: وكيف يدخل المتوكلون في الأسباب؟ فقال: يأخذ البُلغَة لإقامة رمقه حتى يؤدِّيَ الفرض بسكون، لا تخاف الفوت، إن أعطى رجع بشكر، وإن منع برضا وسكون.

---

١ سورة النّور ٢٤/٦١.

٢ جاء في صحيح مسلم (الأشربة، ١٤٠) باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك وبتحققه تحققا تاما واستحباب الاجتماع على الطعام عن أبي هريرة قال: «خرج رسول اللّه ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالا: الجوع يا رسول اللّه، قال: وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا، فقاموا معه، فأتى رجلا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت مرحبا وأهلا، فقال لها رسول اللّه ﷺ: أين فلان ؟ قالت ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول اللّه ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافا مني، قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال له رسول اللّه ﷺ إياك والحلوب ! فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول اللّه ﷺ لأبي بكر وعمر: والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم.» وفي رواية أخرى عند مسلم أن الرجل اسمه: أبو الهيثم بن التيهان الأنصاري وجاء عند ابن ماجة في الذبائح، ٧، باب النهي عن ذبح ذوات الذر، أنّ الرجل هو الواقفي، وضعفه الألباني في تخريجه لسنن ابن ماجة.

وأما قوله ﷺ: «لو توكلتم على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خمصًا وتروح بطانًا»[1] قال: فالطير يغدو أو يروح في طلب المعاش.

فقال: مهلا يا فتى (إن الطير لم)[2] يأخذ إلا في الحوصلة، وأنت لا تقنع بذلك، والطير لم يخاطب بالضمان بالرزق، ولم ينزل الكتاب عليه، وإنما تَعبدَّك الله بالسكون إلى المضمون للعقل الذي جعله فيك، فإن أقمت نفسك مقام الطير الذي لا يعقل فخذ كما يأخذ الطير في الحوصلة، وهي البُلغة، وارفض ما سوى ذلك.

فقيل: ومن أين يقع هذا الاضطراب في السر مع الضمان من الصادق؟ فقال: من جهتين: إحداهما: من قلة المعرفة، وحسن الظن بالله تعالى، وقلة المعرفة بنفي التهم عن الله تعالى، والثانية: أن يعارضها دواعي الموت لخوف الفوت، فتستجيب النفوس للدواعي، فيضعف اليقين؛ لأنه تعالى ضمن الأرزاق، وغَيَّبَ الأوقات، لتحقير القلوب ويمتحن أهل التوكل عقولهم، ولو لا ذلك لكان كل المؤمنين متوكلين، ولكنهم تفاوتوا، فمنهم [٢٠ب] صابر، ومنهم جزع، ومنهم ساكن، ومنهم راضٍ، على قدر ما تفاوتوا في اليقين تفاوتوا في السكون.

---

١ أخرجه أحمد في مسنده، ١/٣٠، ٥٢؛ والترميذي في الزهد، ٣٤٤.وقال حسن صحيح.

٢ وما أثبتناه استنادا إلى ما جاء منسوبا للمحاسبي في محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/٦٠١ دار القلم بيروت.

وسئل الحارث، وقيل له: هل يتداوى المتوكلون؟ قال: نعم. فقيل له: فما معنى قوله ﷺ: «من استرقى أو اكتوى فقد برئ من التوكل»؟[1] قال: ومعنى ذلك: أنه برئ من توكل المتوكلين الذي ذكرهم النبي ﷺ في قوله: «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بلا حساب. قيل: مَنْ هم يا رسولَ الله؟ قال ﷺ: هم الذين لا يَسْتَرقون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون.»[2] أي نقَص توكله عن توكل هؤلاء، فأما من سواهم فمباح لهم الاسترقاء والدواء، ولا يزول عن التوكل.

قال: إذا كان متوقعًا للشفاء والفرج من ربِّ الدواء، وأنه هو الذي يبرئ ويسقم، ويداوي ويعافي.

وقد رُوي أن موسى عليه السلام قال: إلهي ممن الداء؟ قال تعالى: منّي. قال: فممن الدواء؟ قال تعالى: منّي. قال: فما يصنع الأطباء؟ قال تعالى: يطيبون نفوس عبادي.[3]

وروي أنه ﷺ شرب السنا بالتمر،[4] وأن عائشة كانت ممن يبصّر الدواء لكثرة معالجتها رسول الله. فقيل له: ما تقول فيمن يتوكل ليُكفى؟ فقال:

---

١ أخرجه الترمذي في الطب، ١٤؛ وابن ماجة في الطب، ٢٣؛ وأحمد في مسنده، ٢٤٩/٤، ٢٥١، ٢٥٥.

٢ أخرجه البخاري في الطب، ٤٢؛ ومسلم في الإيمان، ٣٧١-٣٧٤؛ والترمذي في القيامة، ١٦؛ أحمد في مسنده، ٤٠/١؛ ٣٩٣/٥.

٣ لم نعثر في كتب حديث النبوي أنّ هذا الخبر عن موسى قد أخبرنا عنه النبي صلوات الله عليه، لعله منقول عن الإسرائليات. المحققان.

٤ روى الترمذي في الطب، ٣٠؛ باب ما جاء في السنا، عن أسماء بنت عميس، أن رسول الله ﷺ قال (لو أن شيئاً كان فيه شفاءٌ من الموت لكان السّنا) وقال حسن غريب، وضعفه الألباني.

هذا نقص في التوكل، وذلك أنه ليس يتوكّل اللّه تعالى ليصرف عنه ما قضى اللّه تعالى، لأنه تعالى يقول: ﴿إنَّ اللّه بالغُ أمْرِهِ﴾[1] أي قاضٍ أمرَه على من توكل عليه، وعلى من لم يتوكل؛ ولكن يصرف عذاب الحرص، ويكفى مؤنة فقر النفس، وذل الطمع.

وقيل له: هل يستوي عند المتوكل السبع والسِنور، والسفر والحضر؟ قال: نعم، يستويان عنده في المقدور، لمعرفته بمجاري القدرة، وتمام الحكم، وإنفاذ المشيئة منه تعالى في خلقه، ولا يستوي ذلك في الطباع، لأنّ المتوكّل يعلم أنّ الأمور كلها بيده تعالى، وأنّ الضر والنفع إليه، وأنه تعالى لو سلط السِنَّور كان أضر من السبع لو كفّه عنه، وكذلك لا يستوي عنده الدينار والدراهم من طريق الطبع، ويستويان عنده في المقدور، لأنه تعالى إذا جعل له البركة في الدراهم كان أنفع له من الدينار إذا نزع منه البركة، فيستويان في المقدور، ولا يستويان في النظر والمعاملة، وإنما يكون كذلك إذا استغرقت عظمة اللّه همومه، واستوفى قلبه معرفة قدرته، فصغر عند ذلك كل ما دونه، كما روي عن ابن عمر أنه أخذ بأذن سبع وطرده[2]؛ فلما عظمت هيبة اللّه تعالى في صدورهم لم يهابوا معه غيره، حياءً منه تعالى أن يخافوا [٢١أ] معه سواه.

---

١ سورة الطّلاق ٦٥/٣.

٢ لم نعثر في كتب الحديث على أثر لخبر إمساك ابن عمر بأذن سبع، ثم طرده.

باب ذكر الجود والسخاء

سئل الحارث عن معنى السخاء، فقال: السخاء على وجوه: سخاء في الدنيا، وسخاء في الدين. فأما السخاء في الدنيا فهو العطاء والبذل والإيثار والسماحة من النفس. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾[1] الآية.

٥ قيل: وما علامة السخاء في الدنيا؟ قال: ترك الادخار، وبغض جمع الأموال، وتعاهد الإخوان بالعطاء عند السؤال. فقيل: وكيف علامته عند سؤال الأخ؟ قال: بأن يكون مسرعًا مبادرًا مع سرور القلب بذلك، يجد السؤال السائل له أفضل من عطائه، كما قال مطرف بن عبد الله الشخير، شعر:

وَإِذَا السُّؤَالُ مَعَ النَّوَالِ وَزَنْتَهُ رَجَحَ السُّؤَالُ وَخَفَّ كُلُّ نَوَالٍ

١٠ فَإِذَا ابْتُلِيتَ بِبَذْلِ وَجْهِكَ سَائِلًا فَابْذُلْهُ لِلْمُتَكَرِّمِ الْمِفْضَالِ[2]

أعطاك قبل سؤاله فكفاك مؤنة السؤال.

وكما قال الحكيم، شعر:

وفتى خلا من ماله ومن المروءة غير خالي[3]

---

١ سورة التّغابن ١٦/٦٤.

٢ الشطر الثاني في البيت الثاني في الأصل: "فابذله للمكرم البذال مفضال." البيتان من بحر الكامل لم ينسبا في كتب الأدب والرقائق لشاعر بعينه، وإنما تمثلهما كثير من الأدباء والوعاظ ومنهم مطرف بن الشخير كما في الحلية ٢/٢١٠.

٣ البيت من مجزوء الكامل. نُسب لسلم الخاسر في البيان والتبيين للجاحظ، دار صعب بيروت ط١. ص ٥٤٩.

وكان المطرف يقول لأصحابه: إذا أراد أحدكم حاجة فليرفعها إليّ في رقعة فإنّي أكره أن أرى ذل السؤال في وجهه.

قال: وأما السخاء في الدين فهو أن تسخُوَ نفسك بأن تتلفها له، وأن تسخو قلبك ببذل مهجتك وإهراق دمك في الله بالسماحة من غير كراهية، لا تريد بذلك ثوابا عاجلا وآجلا، وإن كان غير مستغنٍ عن الثواب، لأن الغالب على قلبه حسن كمال السخاء بترك الاختيار عليه تعالى، حتى يفعل إنابة بك ما لا تحسن أن تختاره لنفسك.

كما روي عن بعض العوابد أنها اعترضت على حيان بن هلال في بعض أسفاره، وهو مع أصحابه جالس، وقالت: أفيكم حيان حتى أسأل عن مسألة؟ فقالوا لها: سلِي عمّا شئتِ وأومؤا إلى حيان، فقالت: ما السخاء عندك؟ قال: البذل والإيثار. قالت: فما السخاء في الدين؟ قال: أن تعبد الله سخيةً بها نفسكِ غير مكرهة. قالت: أفتريدون على ذلك أجرًا؟ فقالوا: نعم، لأنّه تعالى وعد بالحسنة عشر أمثالها. قالت: فإذا أعطيتم واحدة، وأخذتم عشرة فبأي شيء سخيتم عليه؟ قالوا لها: فما السخاء عندكِ؟ قالت: السخاء عندي أن تعبدوا متنعّمين متلذذين بطاعته غير كارهين، لا تريدون على ذلك أجرًا، حتى يكون يفعل ما يشاء. ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم [٣٢١] فيعلم منها أنها تريد شيئا بشيء؟ إن هذا في الدين لقبيح.

وعن بعض العوابد قالت لبعض المتعبدين: أتظنون السخاء في الدينار والدرهم فقط؟ قال: ففيم السخاء عندكِ؟ قالت: السخاء في بذل مهج النفوس لله تعالى.

وفرق قوم بين الجود والسخاء فقالوا: إنه تعالى يوصف بأنه جواد، ولا يوصف بأنّه سخي. ٥

وقال بعضهم: إنما لا يوصف بذلك لأنه مأخوذ من أرض سخاوية ليّنة.

وقال أبو بكر ابن فورك: هذا عندنا خطأ، إنما لا يوصف الله تعالى بأنه سخي لأجل أن التوقيف لم يرد به، وأسماء الله تعالى لا تؤخذ إلا توقيفا.

وحُكي عن ذي النون المصري قال: للسخاء بداية ونهاية، فبدايته أن تسخوَ نفسك ببذل ما في يدك، ونهايته أن تسخو نفسك بما في أيدي الناس للناس؛ ١٠ وهذا معنى ما قاله غيره في بعض كلامه: أن لا يبالي مَن أَكَل الدنيا. وأصل السخاء هو السماحة، وأن تأتي ما تأتيه على طيبة نفس، وقد يكون المعطي بخيلا، والممسك سخيا إذا كان يستصعب عليه العطاء ولا يستكثره، ولذلك قال أصحابنا: إن الله تعالى لم يزل جوادا وإن لم يقع منه عطاء، لأن العطاء فعل، ولأنّ معنى وَصْفِنا له بأنه جواد أنه لا يستصعب عليه العطاء. ١٥

باب ذكر الإرادة وما يتعلق بها

فأما الكلام في معنى الإرادة والفرق بين المريد والمراد وذكر سيرتهما: فاعلم أن الإرادة هي القصد في اللغة، وكذلك ابتداء الفعل، وما به يتوجّه الفعل على وجه دون وجه، لأنه إنما يصير الفعل طاعة لله تعالى بأن يريده الفاعل به، ٥ ولذلك لم يكن الساهي مطيعا لخلوّه من الإرادة والقصد.

ثم أشار المتكلمون في هذا الباب إلى مبادئ الأحوال والمقامات بهذه اللفظة، فقالوا للمبتدئ مريد، وهو الذي يجتهد في طلب الحق، ويتكلف إصابته، ويشتغل به، وكلّ مريد فهو مراد بحاله، لأنه لا يصح أن يريد أمرا إلا وقد أريد به أن يريد.

١٠ فأما على غالب عرف الاستعمال عند القوم فإنه هو المجهود في حاله الذي يستقبله الأمور، والمراد هو الذي يستقبل الأمور. وكذلك يعبرون عن مثل هذا المعنى بالطالب والمطلوب، والقاصد والمقصود، والحامل والمحمول، والمتكلف والمطبوع، والمعين [٢٢أ] والممزوج، وكل ذلك يرجع إلى الفرق بين معنييهما فيما يقع من أحدهما على التكلف مع التعب والعناء، والآخر تبع منه ١٥ على سقوط العناء فيه عنه.

وقال بعضهم: الإرادة هي أن لا يقبل القلب شيئا اعتياضا من المراد.

وقال بعضهم: حقيقة الإرادة بذل المجهود في تحصيل المراد.

وقال آخرون: هو تكرار التفكر ما في الفؤاد.

وفرق مفرقون بين المشيئة والإرادة، فقالوا: الإرادة من شرط العبودية، والمشيئة من صفات الربوبية، وهذا خطأ، لا فرق بينهما.

وقال قائلون: أكرم أحوال المريد الشكر والاستغفار؛ فالشكر لله من ما تفضل وامتنّ به وأنعم فيه بالإفضال، والعفو من الاستئصال لما سلف وفرط من الإغفال، والاستغفار من عظيم هذه الجناية حتى لا يُؤديَه إلى لواحق الاستئصال. ٥

وقال بعضهم: ما من مريد إلا بين يديه عقبة فمن جاوزها وقع في الراحة. فسئل عن معنى العقبة، فقال: هي عقبة مجانبة الاختيار، والرضا بتصاريف الأقدار.

وقيل لبعضهم: متى صحت الإرادة للمريد؟ قال: إذا صحّت إرادته شَغَله المراد عن الإرادة، فضلا عن الإفادة والاستفادة. ١٠

وقال: عين المريد إلى المنّة والقدرة، وإلى جفوة الخليقة، ورؤية ضعف البرية؛ فرؤية المنة يورث الشوق، وتولد الشكر، ورؤية القدرة تورث الخوف منه، ومحقق الإنابة إليه، ورؤية جفوة الخليقة إليه تولد ترك الاعتماد عليهم، ورؤية ضعف البرية والخليقة تورث جهنم، وهي كلها سِمات المريد. ١٥

وقال بعضهم: إذا صدقت كلفته في عبادته فهو مريد، ومتى يجوز من التكلف بحسن الاعتصام بالمولى فهو مراد.

وقال آخرون: همة المريد في العمل لله والمجاهدة فيه، وهمة المراد في صدق الموالاة لله تعالى، وجهد المعاداة[1] فيه، فهو في أول منازل القاصدين مريد، وإذا بلغ النهاية مراد.

وقال بعضهم: المريد السابق، والمراد المقرب، والمراد يتعجل الإصابة ويتأجّل الكلفة، والمريد يعجل الكلفة ويتأجل الإصابة، والمريد طالب، والمراد مطلوب. ٥

وقال خليل الرحمن عليه السلام في معنى الطالبين ﴿هذا رَبّي﴾[2] وقال: ﴿لئِنْ لمْ يَهْدِني رَبّي﴾[3] الآية. وقال: ﴿إني ذاهبٌ إلى رَبّي﴾[4] الآية. والمراد هو المطلوب. وذلك صفة الحبيب ﷺ، وذلك أنه قيل له: ﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبّك الذي خَلَقَ﴾[5] فاستقبله الأمر من غير [٢٢ب] طلب.

١٠ قال بعضهم: صفة المريد في قوله تعالى: ﴿وأَنيبوا إلى رَبّكُمْ وأسْلِموا له﴾[6] وفي قوله تعالى: ﴿والَّذينَ جاهَدُوا فينا﴾[7] وصفة المراد في قوله: ﴿واجْتَبَيْناهُمْ وهَدَيْناهُمْ﴾[8] وقوله: ﴿وألْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى﴾[9] الآية.

وقال بعضهم: مراد أمر المريد على المراد، ومراد المراد على ملاحظة رب العباد.

---

١ وفي الأصل المعادات.
٢ سورة الأنعام ٦/٧٧.
٣ سورة الأنعام ٦/٧٧.
٤ سورة الصّافّات ٣٧/٩٩.
٥ سورة العلق ٩٦/١.
٦ سورة الزُمر ٣٩/٥٤.
٧ سورة العنكبوت٢٩/٦٩.
٨ سورة الأنعام ٦/٨٧.
٩ سورة الفتح ٤٨/٢٦.

وسئل بعضهم عن مجاهدة المريد وما علامتها، وما المحمود منها؟ فقال: هي ثلاثة: أن يجتهد في قطع المُنى زهادةً، والمجاهدة في تقريب ما نأى قربة، وفي الاعتصام في المولى معرفة، والمجاهدة في قطع المُنى. وسئل عن علامات ذلك فقال: علامة قطع المنى عدم التأسف على ما فاته من المؤن، ٥ وعلامة تقريب ما نأى تقريب موت لا شك فيه ولا عسر، وعلامة الاعتصام بالمولى في نسيان النفس والدنيا.

قال بعضهم: رأس المال للمريد العامل المجتهد تصحيح النية، ورأس مال المستعمل رؤية المنة.

وقال بعضهم: سِمة المريد النية، وسمة المراد العجز عن النية. فأما رؤية ١٠ المنة عند العمل فهو حصن للعمل عن عوارض العجب والرياء.

وقال بعضهم: عمل المريد لدنياه وفي دنياه، وربما يزيله عمله عن الذكر؛ لأنه مكتسب فيه، وعمل العارف المراد لا يزيله عن الذكر، لأنه مستعمل، وعلامة المستعمل ثلاث: أحدها أنه لا يحرص على الوجود. والثاني لا يميز في الوجود. والثالث لا يسكن إليه بعد الوجود.

١٥ والأصل في الفرق بين المريد والمراد الخبر عنه ﷺ: «لا تَسْأَلِ الإمارةَ فإنك إنْ أعطيتها عن مسألة وُكلْتَ إليها، وإن أُعطيتَها عن غير مسألة أُعِنت عليها.»[١]

١ أخرجه البخاري في الأحكام، ٥، ٦؛ الإيمان، ١؛ الكفّارات، ١٠؛ مسلم في الإمارات، ١٣؛ الإيمان، ١٩.

باب الكلام في معنى الخوف وذكر منازل الخائفين

اعلم أن من الناس من قال: إن الخوف هيبة القهار، وسطوة الجبار.

وقال بعضهم: الخوف روعة يوجد في القلب فيدهش منه العقل.

وقال قوم: الخوف حركة القلب من جلال الرب.

٥ وقال آخرون: هو سلطان الرهبة وكبرياء العظمة.

وقال قوم: قرب القلوب من حجب الغيوب.

وقال المحاسبي: معنى الخوف ونعته في القلوب لسطوات الله تعالى ونقمه فيتولد على القلوب الفرق خوفا من الوعيد.

وقال قوم: الخوف عجز النفس من التلف.

١٠ وقال بعضهم: بداية الخوف الوجل فإذا قوي صار خوفا.

وقال بعضهم: الخوف فزع يخف له الأعضاء، والهيبة هول نشغل به الأعضاء فإذا خفت الأعضاء سمّيتْ رهبة، من ذلك سمّي الرهبان، فإذا ضمته [٢٣أ] العلم ودلّه على الصبر فامتنع عن القلوب صار خشية وعظم مقداره. قال تعالى: ﴿إنما يَخْشَى اللهَ منْ عِبادِهِ العُلماءُ﴾[١] فالخشية هو الطمأنينة بعد الخوف والقرب ١٥ ممّا يدلّ عليه العلم.

---

١ سورة الفاطر ٣٥/٢٨.

وقال بعضهم: الخوف على أنواع: منها الرهبة، ومنها الخشية، ومنها الوجل، ومنها الهيبة؛ فالخوف للمذنبين، والرهبة للعابدين، والخشية للعَالِمين، والوجل للمحبِّين، والهيبة للعارفين. وأشد الخوف خوف الهيبة؛ لأنه دائم، فكل ما كان أقرب فإنه أكثر، وخوف الهيبة في وقت، وسائر أنواع الخوف فلها سكون وراحة في وقت دون وقت، إذا ذكرت رحمة الله ونظر منه إليه. فخوف المذنبين من العقوبات، وخوف العابدين خوف نخوات العادات، وخوف العَالِمين خوف الشرك الخفي من الطاعات، وخوف المحبين خوف فوت اللقاء في الدنيا والعقبى، وخوف العارفين خوف الهيبة والتعظيم.

قال يحيى بن معاذ الرازي: إن الخوف والرجاء للمؤمنين كالجناحين للطير، إذا سقط أحدهما سقط الآخر.

وقال جعفر: سمعت الجنيد يقول: سمعت سري السقطي يقول: قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم، يقولون بم[1] يختم لنا؟ وقلوب المقربين معلقة بالسوابق، يقولون ماذا سبق من الله تعالى لنا؟

وقال بعضهم: ما استعان عبد على ذنبه بمثل الخوف منه تعالى.

وقال إبراهيم بن أدهم: الهوى يُردي، وخوف الله يشفي؛ واعلم أن ما يزيل عن قلبك هواك إذا خفت مَن تعلم أنه يراك.

---

١ في الأصل: بما.

وقال جعفر: الخوف على ما يرى من نفسه من تقصيرها وتخلفها، فيخاف على هلاك نفسه.

فأما العارفون فخافوه لعظمته وجلاله لا خوفا من الذنوب والإساءة.

وقال بعضهم: وهو الفضيل بن عياض: الخوف أفضل من الرجاء ما دام
٥ الرجل صحيحا، فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل من الخوف.

وقال الحارث: علامة الخائف الفرار من مواطن العقوبات رجاء السلامة، وشدة الحركة عند ذكر أحوال القيامة، وذكر أهل النار والنجوى له، وكثرة البكاء، وطول الخلوة، حتى يتوحش من ذكر العاصين. وقال: علامة ذلك في الظاهر تغير اللون عند الحوادث كما رُوي عنه ﷺ: «أنه كان
١٠ إذا هاجت الريح تغير لونه ودخل مرة عند الظلمة والزلزلة وعند كسوف الشمس والقمر.»[١] وكما روي عن عطاء [٢٣ب] أنه كان جالسا ذات يوم مع أصحابه، فخرج شاب منهم فنظر إلى سحابة قد نشأت في السماء، فدخل مبادرا فقال: يا محمد قد حدث في السماء حادث، فخرج مبادرا فنظر إليها فوضع يده على أم رأسه، فجعل يبكي ويصيح ويتلو هذه الآية: ﴿فَلَما رَأَوْهُ
١٥ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ﴾[٢] الآية.

وقال بعضهم: وهو جعفر بن سليمان: هاجت ريح بالبصرة فسعى الناس إلى المساجد،

١ أخرجه الترمذي في الدعوات، ٤٩.
٢ سورة الأحقاف ٢٤/٤٦.

فأتيت عطاء أنظر ما حاله، فإذا هو قائم في حجرته، ويده على أم رأسه شاخصا ببصره إلى السماء يبكي ويقول: إلهي وسيدي، لم أكن أظن أن تَبقيَني حتى تريني إعلام الآخرة! وكانت إذا هاجت الريح بالبصرة يقول لنفسه: هذا من أجلي يصيب القوم، لو مات عطاء لاستراح أهل البصرة.

٥ وقال عبد الرحمن بن زيد: كان إذا ارتفع هذا الغيم لانت بطن عطاء من شدة الخوف مخافة أن ينزل به العذاب، وكان يقول: ما هلك من هلك حتى حيل بينهم وبين السماء. فهذا علامة في الظاهر، وإنما علامته في الباطن فربما يريد أن يسأل الله شيئا، أو يدعوه بدعوة فينقطع عن ذلك، مخافة المنع لمعرفته بثبوت الحجة عليه، ولا يتحرك متحرّك إلا ظن أنه مأخوذ عنده.

١٠ وقال الجنيد: الخوف توقع العقوبات عند مجاري الأنفاس، وعلامة الخائف أن تراه قاعدا مستوقرا، كأنه ينتظر شيئا يريده، أو يراد به. كما قال عبدالله بن المبارك، شعر:

مستوقرين على رحل كأنهم ركب يريدون أن يمضوا وينقلعوا [1]

وكما رُوي عن بعضهم أنه أصاب وجهه شيء من سواد القِدر

١٥ فقالت ابنته: يا أبتاه ما هذا السواد الذي أراه بوجهك؟ فصاح صيحةً خر مغشياً عليه فلما أفاق، ضرب بيده على وجهه، فسئل عن ذلك، فقال: خفت أن يكون الله سوّد وجهي في الدنيا قبل الوصول إلى الآخرة.

---

١ البيت من بحر البسيط، ينسب لابن المبارك وهو في ديوانه «ط دار اليقين ص ٢٢» على هذا الوجه:
مستوفدين على رحل كأنهمُ ركب يريدون أن يمضوا وينتقلوا

فلما ضاقت الكلمة عليه لما قام في وهمه من المخاوف استغرق قلبه خوف تعجيل النكال. كما روي عن زرارة بن أبي أوفى أنّه قرأ: ﴿فإِذا نُقِرَ في الناقور فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسيرٌ﴾[1] فشهق شهقة فوقع في المحراب ميتا.

كذلك يا فتى، إذا هاجت أسباب من القلب لسطوات الله تعالى ونقمه وجلاله ٥ وعظمته، وهاج من قلبه خوف تعلقه حتى يكون كالغريق الذي لا يحسن [٢٤أ] أن يسبح، قد اشتدت مخاوفه لخوف التلف.

فعلى قدر صفاء القلوب يرى مشاهدة الآخرة، وعلى قدر دينها ودنسها ينظرون، فهم في النظر متفاوتون، كراكب سفينة معه متاع يريد به التجارة، فكسر به المركب، فاشتد فزعه، وعاين الغرق، فنظر إلى ما كان معه من شيء ١٠ يثقله فرمى به تمسك تعلّق بما يرجو أن يخلصه، فلما صار إلى الماء تعاظم به الخوف، وأيقن بالهلكة، فسخت نفسه برفض ما معه من العلائق التي تشغله لينجو بنفسه، وزال عن قلبه كل شيء إلا احتيال النجاة من هول ما قد عاين، فهكذا تفاوت أهل الخوف في الخوف في زيادة، حتى عبروا جسور دواعي الغرة، ووصلوا إلى حصن الإحاطة، ومنهل الاستقامة.

١ سورة المدّثّر ٧٤/٨-٩.

باب في الرجاء وما يتعلق به

قال أبو بكر: قال قوم: الرجاء قرب القلب من ملاطفة الرب.

وقال آخرون: الرجاء سرور الفؤاد بحسن الوعد.

وقال قوم: الرجاء حركة الصدر للجود والكرم والبر.

وقال آخرون: الرجاء هو النظر إلى سعة رحمة الرحمن، وقوة العلم بالكرم والإحسان.

وقال آخرون: الرجاء رؤية الجلال بعين الكمال.

وقال بعضهم: الرجاء ثقة الجود من الجواد الودود.

وقال آخرون: حق الرجاء أن يكون حسن الظن به تعالى؛ لأن الرجاء الذي هو الطمع تقاض عليه لما قدره من الرزق لخلقه وكتبه هو التقاضي[1] عليه لأهل الصفوة، وقبيح، فلا ينبغي أن يكون بلا رجاء، ولاينبغي أن يكون رجاه تقاضيا عليه، بل الوجه أن يكون رجاؤه حسن الظن به، لا الطمع بمجرد نفعه إلى نفسه، أو يدفع شرا عنه، لأنّ أهل الولاية قد علموا أنه قد فرغ لهم عن جميع ما احتاجوا إليه، وقدّره وكتبه لهم، فاستغنوا بعلمهم عن تجشم العناء في التقاضي عليه فيما قدره لهم.

وهو ما يخلف موعده، ولا ينقض تقديره، وكيف لا يثقون به وقد أقسم على موعده بذلك !؟ وليس حسن الظن رجاء فضائل هو أفضل من الرجاء،

---

١ وفي الأصل التقاض.

والراجي لا يكون إلا خائفا، لأن الراجي للشيء أنه يصل إليه خائف أن سوف يفوته، وليس حسن الظن كذلك، لأن المصطفى ﷺ أخبر عنه تعالى فقال: «أنا عند ظن عبدي بي فليَظُنَّ بي ما شاء.»[1] وحسن الظن [٢٤ب] بالله هو المعرفة بجميع صفاته من حيث هو، لا من حيث العبد بل هو في علمه بالله تعالى أن من صفاته أنه محسن مجمل كريم رحيم. ٥

وقال بعضهم: الرجاء حقيقة أن يتولد من الخوف، وكذلك الخوف يتولد من الرجاء، فلا يفترقان، ولا يغلب أحدهما الآخر؛ لأن الرجاء بلا خوف أمن، والخوف بلا رجاء قنوط.

وقال بعضهم: كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، خرج موسى عليه السلام يقتبس نارا، فنودي بالنبوة، فإذا قلبت هذا قلت: كن لما لا تخاف أخوف منك مما تخاف. قال تعالى: ﴿والذين يُؤتون ما آتوا وقلوبُهم وَجلة﴾[2] ندبهم[3] إلى الخوف في موطن الأمن. ١٠

وعن يحيى بن معاذ قال: إلهي كيف لا أرجوك وقد ابتدأتني بالنعم من غير حقّ سبق منّي، أو كيف لا أخاف وأنت الفعّالُ لما تريد.

وقال بعضهم: عُمّال الله تعالى ثلاثة: فعامل يعمل كعمل الولد يتحبب إلى أبيه، ١٥

---

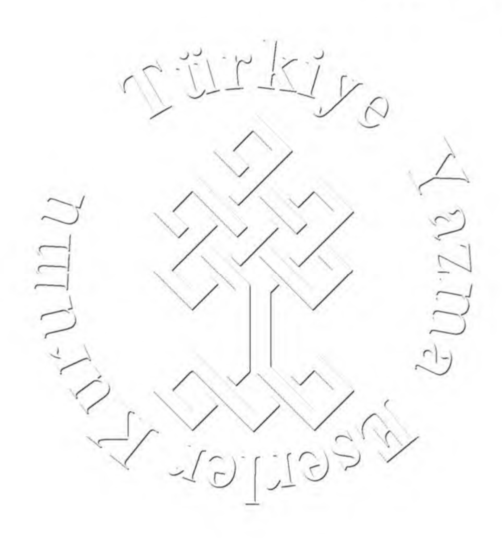
١ أخرجه البخاري في التوحيد، ١٥؛ ومسلم في الذكر، ١٩، ٢١.

٢ سورة المؤمنون ٦٠/٢٣.

٣ وفي الأصل: ندبهما.

وعامل كالأجير يعمل رغبة في الأجرة المشترطة، وعامل يعمل كعبد يعمل لخوف عقوبة سيده؛ فإن استطعتم أن تكونوا كالأولاد المتحببين، أو الأجراء الراغبين، أو العبيد الخائفين فافعلوا.

وقال آخر: سمعت الجنيد يقول: الرجاء يحضُّ على طاعته تعالى ويُنشّط لها، والخوف يقبض عن معاصي اللّٰه تعالى ويحول فيما بين العبد وبينها؛ وهما ٥ حالتان موهبتان لنا في الأصل.



باب الكلام في المعرفة ومعناها واليقين

قال أبو بكر: قد تكلمنا فيما تقدم في المعرفة، واليقين جزء من المعرفة، وقد عبر الناس عن معناه بعبارات:

فمنهم من قال: اليقين ارتفاع الريب في مشهد الغيب.

٥ وسئل الحارث عن معنى اليقين وقال: ما في العلم بالله وأخباره.

وقال آخر: اليقين استقرار معرفة العارفين بالله تعالى.

وقالت طائفة أخرى: اليقين هو الاستبانة. قال: وذلك خطأ، لأنه يقال: تيقنت بالله تعالى، ولا يقال: استبنت بالله تعالى. فقيل له: ما القول الذي فيه السلامة بإصابة الحق فقال: ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «اليقين هو التصديق.»[١]

١٠ وقال بعضهم: اليقين مشاهدة الغيوب بأبصار القلوب.

وقال: اليقين رؤية العيان بقدرة الإيمان.

وقال بعضهم: اليقين استفراغ العلم الذي لا ينقلب ولا يزول، وإيثار الحقيقة الذي لا يتغير ولا يحول.

وسئل الحارث [٢٥أ] فقيل: بم[٢] يتزايد الناس في اليقين؟ فقال: بلزوم القلب

١٥ المعرفة التي يتولد عنها اليقين ومنه قول النبي ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي ضعف اليقين[٣] ثم قال ﷺ: «لما خبّر عن عيسى عليه السلام لما كان يمشي على الماء فقال: لو زاد يقينا لمشى في الهواء.»[٤]

١ أخرجه البخاري في الإيمان، ١.

٢ في الأصل: بما.

٣ أخرجه البخاري في التاريخ الكبير، ٢٦٤/٥؛ والطبراني في معجم الأوسط، ٤٠١/٩؛ والبيهقي في شعب الإيمان، ٣٢/١؛ واورده الهيثمي في مجمع الزوائد، ١٠٧/١. وقال رجاله رجال الثقات.

٤ أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الاصول، ١٧٠/٣.

وسئل الحارث فقيل: ما الذي يوهن اليقين؟ فقال: أعمال الريب، والدخول فيما لا يعني، والشهوة في الحلق والملبس والمذهب والحلية، كما قيل في الخبر: «الشهوة تضعف اليقين»[١] وذلك كالرجل الذي يدخل في حال من الأحوال كاللباس والشِبع والمذهب يشهر به، ويشتغل قلبه به، فيضعف يقينه؛ لقلة اشتغال القلب وإشارة الأصابع. ٥

وعن قتادة: قال لقمان لابنه: يا بنيّ إنّ العبادة الصبر على المكاره، وحسن اليقين، وإن لكل عمل كمالاً، وكمال العبادة اليقين.

وسئل الجنيد عن علامة اليقين فقال: قلة الاهتمام بما تكفّل لك من الرزق.

وسئل سهل بن عبد الله التستري عن اليقين، فقال: هو الله تعالى.

١٠ وقيل لجعفر بن محمد: ما أقل شيء، وما أكثره؟ فقال: أما أقل شيء فهو اليقين، وأما أكثر الشيء فهو الشك.

وسئل النوري عن نعت اليقين فقال: السكون عند العدم، والإيثار عند الوجود.

قال الخلدي في قول عليّ ﷺ "لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا": بل كان يزداد يقينا، ليس العلم كالعيان، أشار أن اليقين هو كالعيان. ولذلك قال تعالى: ١٥ ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوتَ السماوات والأرض وليكونَ من الموقنين﴾[٢] لما رأى الملكوت وعاين.

١ لم نعثر على تخريج له.
٢ سورة الأنعام ٧٥/٦.

باب الكلام في حسن الظنّ باللّٰه تعالى

قال أبو بكر: الأصل في ذلك أن يكون العبد حسن الظنّ باللّٰه تعالى، بما هو عليه من صفات الرحمة والكرم والجود، غير معتمد على ذلك ولا آمنٍ فيه، وذلك أنه تعالى قال في قصّة من اعتمد ذلك، وآمن نفسه، وقصّر في عمله ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أَرْدَاكم﴾[1] الآية.

وروي في الخبر عنه ﷺ أنه قال: «أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ما شاء.»[2]

وقيل للحسن: إن فلانًا يقول: أنا حسَنُ الظنّ باللّٰه تعالى، فقال: كذب، لو حَسُن ظنّه باللّٰه تعالى لحَسُن عملُه، وإذا رجع العبد إليه تعالى من حيث هو، مع نظره إلى تقصير نفسه، واجتهاده في تركه كان في حسن ظنّه محمودا، وإذا [٢٥ب] استلبته دواعى الغرّة، واختطفته أسباب الغفلة، وانهمك في هواه وشهوته، ويقول: أنا حَسَنُ الظنّ باللّٰه فهو مذموم.

وقال بعضهم: ليكن ثقتك بربّك على حسب تهمتك لنفسك، فالواجب أن يكون العبد واثقا بربّه، متّهِمًا لنفسه، غير آمن من مكره، ولا آيس من رحمته.

قال النبيّ ﷺ في دعائه: «ولا تؤمنيّ من مكرك، ولا تؤيّسني من رحمتك.»[3]

---

١ سورة فصّلت ٢٣/٤١.

٢ أخرجه البخاري في التوحيد، ١٥؛ ومسلم في الذكر، ١٩، ٢١.

٣ لم نعثر على تخريج له.

وقال تعالى ﴿فلا يأمن مكرَ الله إلا القومُ الخاسرون﴾[1] وقال (تعالى): ﴿ومن يقنط من رحْمَة ربّه إلا الضَّالُّون﴾[2]

فمن انتهى حُسْن ظنه بالله تعالى إلى أن يعاود الذنب اتّكالاً على رحمته تعالى فهو كما قال ﷺ: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت.»[3]

٥ واعلم أن حُسْن الظن به تعالى لقوة الرجاء، لأنه إذا تم رجاؤه حَسُن ظنُّه، فأما قوله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي.»[4] فإنما أشار إلى عبد العبودية، لا إلى عبد الملك، فإنه لا يضيف إلى نفسه بهذه الخصوصية إلا المؤمنين في سائر الآي والأخبار؛ لقوله تعالى: ﴿إنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾[5] وقال تعالى: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بها عِبادُ الله﴾[6]

١٠ وإنما أراد بذلك أولياءه المخلصين في طاعته، فأما المقصّر في الطاعة والعبادة المتمني على الله إذا قال: "أنا حَسَنُ الظن به تعالى" فليس من جملة ما وصفهم بأنّه عبده على التخصيص، فذلك لا يجب أن يقع الاغترار به، وإنما قال: فليظن بي، والأحمق يعتمد ويتمنى على الله،

---

١ سورة الأعراف ٩٩/٧.

٢ سورة الحجر ٥٦/١٥.

٣ أخرجه الترمذي في صفة القيامة، ٢٥؛ وابن ماجة في الزهد، ٣١؛ وأحمد في مسنده، ١٢٤/٤؛ والحاكم في المستدرك، ٥٧/١.

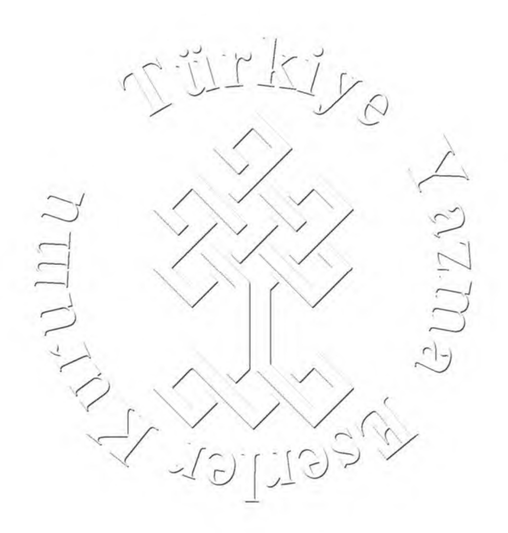
٤ أخرجه البخاري في التوحيد، ١٥؛ ومسلم في الذكر، ١٩، ٢١.

٥ سورة الحجر ٤٢/١٥.

٦ سورة الإنسان ٦/٧٦.

ومن يعتمد على الأمن كان كما قال: ﷺ: "ما شاء" في صفة المخلصين المجدّين، الذين اتضح[1] وصفهم بأنهم عبيده على الاصطفاء وفي الاختصاص، وفي قوله: «فليَظُنَّ بي ما شاء»[2] ترغيب وترهيب، أي: فليظن بي ما شاء من عفو ورحمة وكرم، فإني أهل لذلك، لا ينقصني عطاء، ولا يضرني منع، ولا يزيدني عبادة، ولا يشينني معصية، فبان بأنه محمول على الوجه الذي ذكرناه في حسن الظن به.

ه



١ في الأصل تضح.

٢ أخرجه البخاري في التوحيد، ١٥؛ ومسلم في الذكر، ١٩، ٢١.

باب الكلام في معنى المراقبة والمشاهدة

الأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿وكان اللّه على كُلِّ شيء رَقِيباً﴾[1] وقوله ﷺ لما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: «أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.»[2] والمراقب أبدا ناظر إليه في جميع أحواله، وسكناته وحركاته، يعلم أنه بمرأى منه [٢٦أ] ومَسْمَع، لا يخفى عليه منه شيء. ٥

وحكي عن يوسف بن الحسن قال: قلت لذي النون المصري -لما أردت أن أفارقه-: أوصني فقال: انظر أن لا تدخل في الأمر إلا وتذكر نظر اللّه إليك قبل نظرك، وعلمه بك قبل علمك. فقال: إن اللّه تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام فقال: قل لبني إسرائيل: إذا تكلمتم فاذكروا سمعي، وإذا تحركتم فاذكروا رؤيتي لكم، وإذا سكنتم فاذكروا علمي بكم، وإذا هممتم فاعلموا أني عالم بما تهتمون به قبل أن تهتموا.[3] ١٠

فقد قال اللّه تعالى: ﴿ولا تَقْفُ ما لَيْسَ لك به عِلْمٌ إن السَّمْعَ والبَصَرَ﴾[4] الآية. وقال: ﴿ولِمَنْ خاف مَقامَ رَبِّهِ جنَّتانِ﴾[5] ذكر بعض أهل التأويل أن معناه من خاف بربه منه، وأنه بحيث لا يخفى عليه منه شيء، ولذلك قال بعضهم: استحيِ من اللّه تعالى على قدر قربه منك، وعلمه بك، وخَفْهُ على قَدر قدرته عليك. ١٥

---

١ سورة الأحزاب ٥٢/٣٣.

٢ أخرجه البخاري في الإيمان، ١٩؛ ومسلم في الإيمان، ١.

٣ لم نعثر في كتب الحديث على أثر لهذا الخبر الرباني مع موسى، ولعله من الإسرائيليات. المحققان.

٤ سورة الإسراء ٣٦/١٧.

٥ سورة الرّحمن ٤٦/٥٥.

ويُحكى عن بعضهم، قال: أخذت من جملة ما كتبت أربعة آلاف[1] حديث، ثم اختصرت منها أربع مائة حديث، ثم رجعت منها إلى أربعين، ثم رجعت إلى أربعة فوجدت معاني ذلك كله فيه وذلك: استعدّ للدنيا قدر بقائك فيها، واستعد للآخرة قدر مكثك فيها، وأَطِعِ اللّٰه قَدر حاجتك إليه واستحي اللهَ قَدر قُربه منك، ٥ ومن علم أنه من ربه بحيث لا يستره عنه ساتر، ولايواريه دونه مواري، كان متيقظا متذكرا لنفسه.

وحكي عن أبي زيد قال: إن لم تعرفه فقد عرفك، وإن لم تصل إليه فقد وصل إليك، وإن غبت وغفلت عنه فليس عنك غائبا ولا غافلا، قال تعالى: ﴿وما كُنا عنِ الخَلْقِ غافلينَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وما كُنا غائبينَ﴾[3] فالمراقب لربه ١٠ محاسبٌ لنفسه، ناظر إلى جلاله وعظمته، فيورثه علمه بقربه تعالى مراقبته، ويورثه مراقبته له الهيبة منه، والتعظيم له، ويورثه ذلك الانزجار عن نواهيه، والانقياد له.

وحكي عن يحيى بن معاذ الرازي قال: المؤمن كالشاة المأبورة - يعني التي في جوفها إبرة - فإنها لا تسمُن بالعلَف، كذلك المؤمن بمراقبته لمولاه، وهيبته ١٥ لسيده، وهو كمن بحضرته أسد مخلي، لا يمنعه منه مانع ينتظر كل ساعة أن يختطفه، فليس له قرار ولا راحة؛ لاشتغاله بنظره إلى مولاه، [٢٦ب] وتجدد هيبته منه في قلبه.

---

١ وفي الأصل الف.
٢ سورة المؤمنون ١٧/٢٣.
٣ سورة الأعراف ٧/٧.

فأما المشاهدة فإنها ميراث المراقبة، وتلك مشاهدة القلوب، ومكاشفة الغيوب بأنوار الأسرار، في مطالعة الملك الجبّار، عند صفائه من الأدناس والأقذار، وخلوصهم من الأغيار والأضداد، وتلك حالة لطيفة أشار إليها القائل في قوله: كأني أنظر إلى عرش ربي، بارزا وكأني من صفاء المعرفة، وزيادة اليقين، والتحقق بالحال، حتى يصير الغيب له كالمشاهدة، لما وجد من لطائف التقريب منه تعالى، وفوائد الشرح لصدره، والتنوير لقلبه، حتى يكون كما قال القائل: كأنه ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق، زالت عنه الغفلات، واستولى على قلبه حكم ما غاب عن عينه، كأنّه له مُشاهَد.

ه

باب الكلام في معنى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين

اعلم أن الله تعالى ذكر في كتابه اليقين في مواضع على ثلاثة أوجه: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.

وقال ﷺ: «سلوا الله العفو والعافية واليقين»[1] وقال ﷺ: «رحم الله أخي عيسى، لو ازداد يقينا لمشى في الهواء.»[2]

وهذا عند بعض أهل العلم إشارة إلى عروجه، وأن يقينه كان زائدا على يقينه.

وأصل معنى اليقين هو المكاشفة وذلك يكون على ثلاثة أوجه:

منها مكاشفة العيان بالأبصار يوم القيامة.

ومنها مكاشفة القلوب بحقائق الإيمان في الدنيا.

والثالثة مكاشفة الآيات بإظهار القدرة بالمعجزات للأنبياء، والكرامات للأولياء والإجابات

وليس لزيادات اليقين نهاية، كلما تفهموا وتفقّهوا في الدين ازدادوا يقينا على يقين.

واليقين أصل جميع الأحوال، وإليه تنتهي جميع الأحوال، ونهاية اليقين على الأفكار تحقيق التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريب، بمشاهدة القلوب بصفاء النظر إليه تعالى، مع إزالة التعرض، ومعارضة التهم.

---

١ أخرجه الترمذي في الدعوات، ٩٣؛ وأحمد في مسنده، ١/٩٠٢، ٥/٢٣١، ٢٣٥.

٢ وفي متن الإبانة الهوى. أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الاصول، ٣/١٧٠.

وقال بعضهم: لا يستحق العبد اليقين حتى يقطع كل سبب بينه وبين اللّه تعالى، من العرش إلى الثرى؛ حتى يكون مراده اللّه تعالى لا غير، ويُؤْثرَ اللّه تعالى على كل شيء سواه.

وقال بعضهم: إذا وجد العبد [٢٧أ] الرضا بما قَسَم اللّه له فقد تكامل فيه اليقين، وإنّ العبد إذا تحقق باليقين يدخل من يقين إلى يقين، حتى يصير اليقين له وطناً. قال تعالى: ﴿وفي الأَرضِ آياتٌ لِلْموقنينَ﴾[١]

وسئل النوري فقال: اليقين هو المشاهدة.

قال بعضهم: علم اليقين. ما يحصل عن العين والفكر والنظر.

وعين اليقين ما يحصل من العلم عن العيان بالبصر.

وحق اليقين اجتماعهما.

فإذا كان في حال النظر يعلم فكذلك علم اليقين، وإذا أخبره الصادق بالمعجزات بمثل ما أراده اللّه تعالى (صار نظره)[٢] ذلك عين اليقين، فإذا رأى ببصره وعينه صار ذلك حق اليقين. قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليَقينِ﴾[٣] أشار ذلك إلى المعاينة بالبصر، وسمّاها عين اليقين.

وحكي عن الشبلي قال: علم اليقين ما وصل إلينا على لسان الرسل، وعين اليقين ما أوصله اللّه تعالى من أنوار هدايته إلى أسرار القلوب من غير توسط، وإنّ حق اليقين لا سبيل إليه.

---

١ سورة الذّاريات ٥١/٢٠. وفي الأصل: إن في ذلك لآيات للموقنين وهو خطأ.

٢ في الأصل: نظره صار.

٣ سورة التّكاثر ١٠٢/٧.

والأصل في هذا الباب: أن اليقين حصول العلم عن شرط انتفاء عوارض الشك، ودواعي الشُّبَه، فإذا اجتمع له الوجوه والمدارك فحصل العلم له من جميعها، كان عين اليقين، لأن حق الشيء واجب وخاصته ونهايته.

وقال بعضهم: عين اليقين، النظر إلى الشيء لله تعالى بالله تعالى.

ه وقال بعضهم: عين اليقين هو عين البقاء.

وقال بعضهم: هو العلم بالشيء من غير مخالجة الشك.

وقال: هو النظر إلى الغيب بعين المعرفة.

باب في معنى التجريد والتفريد

أما التفريد فهو: إفراد المفرد بالقدم على وجود حقائق الفردانية.

وقال بعضهم: هو إشارة من المفرِد إلى الفرد عند تفرّده عن الكونين، وتعرّيه عن الملكين؛ بتبرّيه عن نفسه ووجهه، مطالعاً لِما يَرِدُ على سرّه من الخواطر ٥ من الحقّ، في نفس ما عساه لقى عليه بما يكون صفة التفرد، خوفا منه، وتحرّيا لتصحيح التفرّد، وطلبا لصدقه في تفريده. لأن صفة الفردانية إشارة متفرد يصعد إليه معتصماً بإشارة الفرد إلى نفسه، فإذا قدح في إشارة الفرد يقتضى للفرد عيب سبب أو علة تعليق قدرها، وانفصل [٢٧ب] عن معتصمه، وانفصم عن متمسكه، ورجعت الإشارة قهقري إلى المشير.

١٠ وقال بعضهم: حقيقة التفريد إشارة إلى سر منفرد قد فني عن الكل، وبقي ببقاء الفرد، وتأثر فيه أثر الفردانية. وقد كشف ريح الشيئية عن حجب البشرية.

وقال بعضهم: صفة الفردانية ممتنعة عن وصول إشارات الثنوية، ومن به معاني الازدواج قائمة داعية إلى قبول المزدوجين. قال تعالى: ﴿ومن كُلِّ شيْءٍ خلقنا زوجين لعلكم تَذَكّرون ففِرُّوا إلى الله﴾[١] تعالى يعني إلى الفرد الأحد ١٥ الذي لا يصل إليه إشارة البتة، إلا إشارة مَن تفرد عن معاني الأعداد، وتعرّى عن الأنداد.

فأما التجريد، فمنهم من قال: هو ما تجرد القلوب من شواهد الألوهية إذا صفا من كدور البشرية.

١ سورة الذّاريات ٥١/ ٤٩-٥٠.

وسئل بعضهم عن حقيقة التجريد والتوحيد والتفريد، فقال: هي ألفاظ مختلفة لمعانٍ[1] متفقةٍ، وتفصيلها على مقدار حقائق الواجدين وإشاراتهم؛ كما قال القائل: حقيقة الحقّ ليس يعرفه إلا المجرد فيه حق تجريد. والهمّ المفرد، والسر المجرد بمعنى واحد، وهو همّ العبد وسره إذا تجرد من جميع الأشغال وقد تفرد بمراقبة ذي الجلال، فلا يعارضه خواطر قاطعة، ولا عوارض مانعة عن التوجه والإقبال في القرب والاتّصال.

قال الجنيد، قال إبراهيم بن الآجري: مبادرة همّك إليه تعالى طرفة عين خير لك مما طلعت عليه الشمس.

وقال الشبلي لرجل هيمان: الهمّ في فصل العدم بحق القدم، همك همّ جانح، وهمّي همّ هائم.

وقال بعضهم: التجريد تجريد السر عن التدبير بثياب السكون بطلب المحبوب، وتعريته عن التدبير بلسان السكون والطمأنينة على مفارقة المودود، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يا أيها المدثر قم فانذر﴾[2] فأزعج سره بالتجريد عن سكونه إلى القيام من الطمأنينة في الطلب حتى تورمت قدماه، ثم قال: ﴿فاعلَمْ أنَّهُ لا إله إلا الله﴾[3] فدلّ ذلك على دعوته إياه إلى التفريد.

وقال بعضهم: التجريد رجوع إلى الحق كيوم ولدته [٢٨أ] أمّه.

وقال بعضهم: التجريد أن يتعرى بروحه عن تعليق الهمة في العقبى، ويتجرد بسره عن الإشارة إلى الكون ولو بلمحة أو طرفة.

---

١ وفي الأصل لمعاني.

٢ سورة المدّثّر ٧٤/١-٢.

٣ سورة محمّد ٤٧/١٩.

باب الكلام في معنى الفناء والبقاء

قال أبو بكر بن فورك: قلت يوما لأبي عبد اللّه بن الخفيف الشيرازى: ما معنى الفناء والبقاء؟ قال: مجموع معناه إنما يراد بذلك عندنا فناء الصفات المذمومة، وبقاء الصفات المحمودة؛ بأن يرتفع الجهل، ويحصل بَدَلَهُ العلم، والغفلة ويحصل بدلها الفطنة، ونحو ذلك.

وقال بعضهم: معنى الفناء فناء صفة النفس، وهو فناء الاسترواح إلى حال يقع.

ومعنى البقاء بقاء العقد على ذلك.

وقال بعضهم: هو فناء رؤية العبد في أفعاله لأفعاله بقيام اللّه تعالى له بذلك، والبقاء بقاء رؤية العبد لقيام اللّه تعالى له في قيامه لله.

وقال بعضهم: الفناء على ثلاثة أضرب: فناء عن الخلق كلهم، وفناء عن التعليق كله، وفناء عن النفس والروح.

وهو أنّهم أغنوا عن الخلق كلهم، فلم يبق لهم فيه حظ، ثم أفنوا عن حظوظ أنفسهم فلم يبق لهم حظ من أنفسهم عن التعليق كله، فلم يبق لهم في شيء تعليق، ثم أفنوا، ثم أبقوا بالبقاء فصارت تفني همتهم البقاء، ثم أُبقوا ببقاء الفناء، فصاروا أغنياء باللّه تعالى، فعند ذلك يتلاشى الكون، ويفني الوليّ تحت تلك الإشارة، وفناؤه في ذلك بقاؤُه، فيفنيه، ثم يبقيه بأنه يفنيه عنه ويبقيه به، ويقال أيضا: الفناء تلاشي إشارات العبودية تحت إشارات الربوبية.

فأما البقاء فقد قال بعضهم: فهو أن تصير همة الروح بقاء الأبد، وهموم القلب تجتمع، وهمّه الواحد الصمد، وعلامة مَن هذه حالاته أن لا يُبقي على شيء فيما لا يمتلكه من الدنيا تحرزا من التلطُّخ بشيء من الدنيا الفانية، وكراهية لها، واجتنابا عنها، وطلبا للباقي، وإيثارا له واختيارا. وقال: البقاء أن يكون نظره ٥ بالباقي، وكلامه به، وبطشه به، وحركته وسكونه به، ينظر بالباقي إلى الباقي.

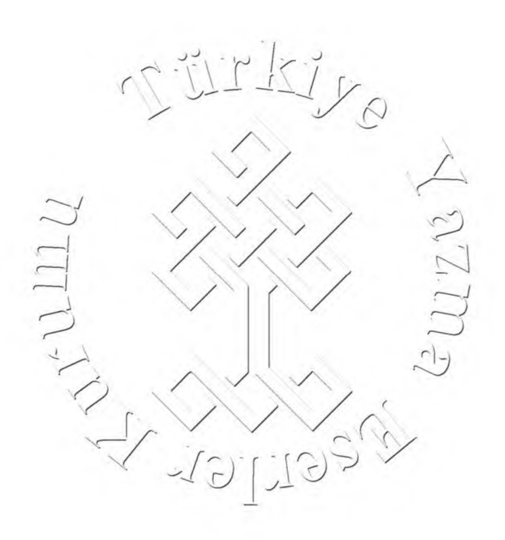
وقال بعضهم: البقاء يكون مع اللقاء، لأن البقاء الذي ليس معه فناء لايكون إلا مع اللقاء، وعلامة أهل [٢٨ب] البقاء أن لا يصحبهم الشيء الفاني، لأن البقاء والفناء ضدان، فلا يجتمعان في شيء واحد، كذلك لا تجتمع الهمة الفانية والهمة الباقية في قلب واحد.

١٠ وقال أبو سعيد الخراز: لله تعالى قوم أفناهم به عنهم، وأبقاهم به له، فأَدْخلهم خزائن أنواره، وأرخى عليهم حجب أستاره، وظللهم ببهائه؛ فهم أرواح بلا أجساد، طيارون مع الملائكة هفّافين. ثم قال: بالحق أفناهم، وبه أغناهم، ببقائه أبقاهم.

وقال الشبلي: من وصل إلى الحق بعينه فقد استغنى عن غيره.

وقال بعضهم: أول علم الفناء هو النزول في حقائق البقاء مع اللّه تعالى؛ وحقائق البقاء إيثار الله على جميع ما دونه، وكمال العناية في صدق الانفراد به حتى يكون هو الحظ سقوط كل حظ وتبقى هي المراد بالتعري عن كل مراد، فإذا ذاق طعم الفناء نَعِمَ بذلك، فيبدو له عند ذلك بادٍ[1] من بوادئ الإجلال.

٥ فيفنى عن وجوده لطعم الفناء، ويبقى معه رؤية ما كان من اللّه لله، إذا كان الله القائم بذلك بدلَه.



١ وفي الأصل بادي.

باب الكلام في وصف معاملات المحبين ومقاماتهم، وخوف المحبِّ وما وجهه

قال جعفر: سمعت الجنيد يقول: سألت السري عن أفضل ما يتقرب العبد إلى اللّه تعالى، فقال: أن يطّلع اللّه تعالى على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة غيره. ٥

وقال بعضهم في معاملة المحبين لله تعالى: إنّ صفة ذلك أن يكونوا مؤثرين لله تعالى عقدا وقولا وسعيا، بصدق الإيثار، وحسن الائتمار، وترك التملق والاقتدار.

فأما علامة الإيثار: فهو أن يكون عند ذكره على الدوام مشهدا به، وقد قيل: من أحب شيئا أكثر ذكره. ١٠

وأما علامة حسن الائتمار: ففي تقديم أمره على كل عارض من الأفكار، أو تسويف بإغفال، فلا يخلي وقتاً له من إقامة الأمر فيما بينه وبين معبوده، فيقدم الشغل بذلك على كل عارض وخاطر.

وأما صفة التملق فذلك عند نزول حكم المولى في مواقع الأقدار لا يعترض عليه بقول ولا عقد في تقديم ولا تأخير، ولا تمييز حال من حال، بل يتلقاه [٢٩أ] ١٥ بموافقة، ويرضى فيه بحسن الانقياد والطاعة، وتحقيق ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إن كان آباؤكم وأبناؤكم﴾ الآية، إلى قوله ﴿أَحَبَّ إليكم من اللّه ورسوله﴾[١]

---

١ سورة التّوبة ٩/ ٢٤.

وسئل الحارث عن الغالب على قلوب المحبين، فقال: كثرة الذكر لله تعالى. قال تعالى: ﴿اذكروا اللّه ذِكْرا كثيرا﴾[1] فذكر اللّه هو الغالب على قلوب أهل محبته، لا يريدون به بدلا، ولا يبغون عنه حِوَلا، لو قُطِعوا عن ذكر سيدهم لفسد العيش عليهم، ولتشتتوا في أمورهم، ولَتَنَفَّعوا في أحوالهم. فذكر اللّه تعالى هو المستولي على همومهم وعقولهم. ٥

كما قال فتح الموصلي: إيثار محبتك لله على محبة نفسك من علامة حبّك لله تعالى، لا تجد مع الحبّ لله تعالى لذة شيء وتغفل عن ذكره تعالى، يأملون لقاءه، وأن يظفروا بمرادهم منه.

كما روي عن عبد الواحد بن زيد قال: قال الحسن: لو علم المحبون له تعالى في الدنيا أنهم لا ينظرون إلى اللّه في العقبى لتقطعت أنفسهم حسرات، ١٠ وماتوا كمدا. ولَمَا هناهم عيش في الدنيا لشدة الكمد. وكذلك اللّه تعالى يبدِئ لهم الفضل رحمة منه، فيُروّح قلوبهم فرحا رَوْح الظفر. ﴿في مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مَليكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[2] لا يؤملون غيره، ولا يرجون سواه، قد اتخذوه وكيلا في جميع أمورهم وأحوالهم، راضون بقضائه، شاكرون لآلائه، موقنون بعظمته وكبريائه، قد أخرج من قلوبهم التملك والاختيار، لموضع العظمة بهم باللّه تعالى، وحسن ١٥ ظنونهم به، فعن اللّه يأخذون علمهم، وبأمره يؤدِّبون أنفسهم، حتى طهرت أخلاقهم، وظهرت محاسنهم، وغابت مساوئهم بما آثروا من محبة مولاهم، فتمت عليهم من اللّه النعمة في أخراهم ودنياهم.

---

١ سورة الأحزاب ٣٣/ ٤١.

٢ سورة القمر ٥٤/ ٥٥.

وسئل بعضهم عن علامات المحب، فقال: قد تباين الواصفون في وصف أعلام المحب:

فمِن قائل قال: علامته انتفاء الخوف والوعيد عنه.

وقائل قال: علامته الخوف، وهذا أصح، لأن من غلب عليه حب الشيء أورثه حبُّ زواله الخوفَ، كما أن حب الدنيا أورث أهلها خوف الفقر، فزوال الخوف منه عَلَمٌ لنفي المحبة.

وقال ذو النون: ما أعلم في الحب علامة إلا أن يطرح الأشياء كلها، فتكون [٢٩ب] الأشياء له وبه.

وسئل بعضهم عن علامة الحب فقال: الشوق.

وسئل عن علامة الشوق فقال: إحدى علاماته قطع الجوارح عن اللذات والشهوات دونه.

وسئل الحارث عن خوف المحبّ ما وجهه؟ قال: إنّ المحب لما علم أنه تعالى يحبّ أن يُخَافَ منه تعالى خاف الله، موافقة له في محبته، لأن المحب موافق لمحبوبه كما قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تُظهِر حُبَّه — هذا محالٌ في القياس بديعُ

لو كان حبك صادقا لأطعته — إنّ المحبّ لمن يحب مطيع[1]

١ البيتان من الكامل، ينسبان للإمام الشافعي، انظر ديوانه ص٩٦ مكتبة ابن سينا، القاهرة.

باب الحياء، وما يتعلق به من ذكر المراقبة، وظرف الأخلاق

سئل الحارث عن أول المراقبة فقال: علم القلب بقرب الرب. وسئل عن الحياء فقال: تقبض القلب عن مطالعته، قال: فقلت له زدني، فقال: حفرة القلب عن الانبساط.

٥ وفيه جواب آخر: أن معنى الحياء من الله تعالى هو الامتناع من كل خُلُق رديءٍ لا يرضاه الله تعالى. فقلت: فما علامة المستحيي منه تعالى؟ قال: لا يرى في المنزل الذي يُستَحيَى من مثله.

وسئل الحارث عن الذي يقوّي الحياء، ويزيد في قدره، فقال: معرفة القلب بتظاهر نعم الله تعالى عنده، مع كثرة تفريطه وتضييعه[1] شكره.

١٠ قال: وفيه جواب آخر: وهو علم القلب بمعرفة السؤال، والوقوف (غدًا)[2] بين يدي الله يسائله عن مثقال الذر، فقلت له: زدني، فقال: إن الذي يزيد في قدر الحياء ويقويه أن تعلم أنك بعين الله تعالى في جميع منقلبك، لا يخف عليه شيء من حركتك وسكونك. فقيل له: وما الغالب على قلب المستحيي من ربه؟ فقال: تعظيم رؤية من يراه وهو المقتدر على عقوبته، وقد أسبل عليه

١٥ بستره. قال: فقلت وما علامته في الظاهر؟ قال انقباض جوارحه عن الانبساط.

وكان أبو بكر الصديق ﷺ لا يدخل الخلاء إلا متقنّعًا حياء من الله تعالى.

---

١ وفي الأصل: تضييفه.

٢ وفي الأصل: عما وما أثبتناه يقتضيه السياق.

وقال مالك بن دينار: قد استحييت منه تعالى من كثرة دخول الخلاء، ووددت أنه تعالى جعل رزقي حصاةً أمصّها حتى أموت. قال: فقلت له، هل ينبسطون في حال الرخصة إلى موضع الشبهات؟ قال: سبحان الله يا فتى! يا فتى، إنهم يستحيون من الله في الانبساط إلى فضول المباح. فكيف ينبسطون إلى الشبهات! قال: فقلت زدني في وصف أخلاقه الظاهرة، قال: إنّه لما مَشَى [٣٠أ] يغطي رأسه حياء منه تعالى، هذا كان عطاء السلمي.

وقيل لبعضهم: لم لا تصلي داخل المسجد؟ فقال: "استحياءً[1] منه تعالى أن أدخل بيته وأنا قد عصيته." فمثل هذا يُمْسي[2] ويصبح وليست له جارحة تضمن على ما يكرهه الله تعالى، وينهى عنه، أفعاله كلها على الإصابة، ومذاهبه على الموافقة كثيرة الاتصال، واسع العلم، كثير الحلم، قليل الكلام، كثير الفكر، ظريف الخلق.

وسئل عن معنى ظرف الخلق فقال: ترك أخلاق الريب مع دوام السخاء والكرم، طاهر الأخلاق، صافي الهمم، الغالب على قلبه الحزن والخوف أن يشيره قدره بحالة يستريح إليها، ويميل إلى طاعتها.

وسئل الحارث، فقيل له: ما الذي[3] يشين الحياء ويوهنه؟ فقال: إشارة الأرواح إلى مواضع الأطماع، كما قال الحكيم: مريدوه يستحيوه من أن يراهم يشيرون بالأرواح نحو سواه. فقيل له: وما أعمال الريب؟ قال كثرة الحرص، وتضييع الهمم، والميل مع الرخصة، وأخذه ما لا يضرّ فقده، وطول الأمل، وخوف الفقر، وتضييع الشكر.

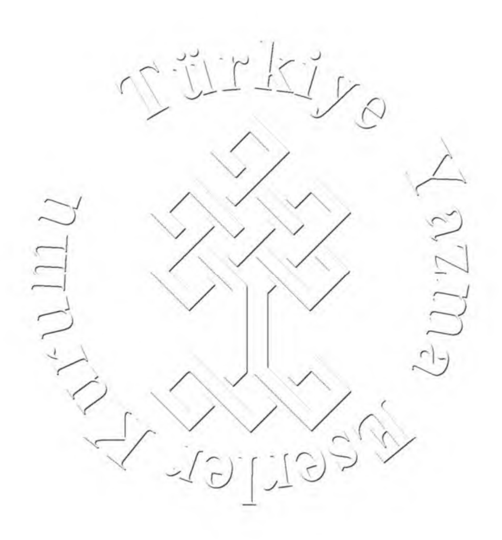
---

١ وفي أصل المتن المستحيا.
٢ وفي الأصل يمشي.
٣ في الأصل الذين.

وروي عنه ﷺ: أنه قال: «لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء.»[١]

وقال الحسن: لقد أدْرَكْتُ أقواما كانوا (لا) يسألون الجنة حياء منه.

وقال بعضهم: يستجلب الحياء من الله تعالى بالتفكر في قوله: الآية ﴿ألم يعلم بأنَّ الله يرى﴾[٢]



١ أخرجه الإمام مالك في الموطأ في حسن الخلق، ٩.

٢ سورة العلق ١٤/٩٦.

باب الأنس بالله تعالى وعلامته

سئل الحارث عن علامة الأنس به تعالى فقال: التوحش عن الخلق.

وقال ذو النون: إذا رأيتَ الله تعالى يوحشك عن الخلق فاعلم أنه يونسك بنفسه.

وقيل لرابعة[١]: بِمَ نِلْتِ هذه المنزلة؟ فقالت: بترك ما لا يعنيني، وأُنسِي بمن لم يزل ولا يزال.

وقال ذو النون في بعض كلامه: يا من أنيسَ كلّ منفرد بذكره، وجليسَ كلّ متوحّد بحبّه.

وقال عبد الله بن زيد للراهب: صف لي طريق الصبر. فقال: تعجيل الوحدة؛ فإنّك لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك. الوحدة رأس العبادة، والأنس فيها بالفكر. قال: فقلت يا راهب ما أقلّ ما يجد العبد في الوحدة؟ فقال: الراحة من مداراة الناس، والسلامة من شرهم. قال: فقلت يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟ [٣٠ب] فقال: إذا صفا الود، وخلصت المعاملة له. قال: فقلت: يا راهب، ومتى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع الهمُّ فصار في الطاعة. قال: فقلت: فمتى تخلص المعاملة؟ قال: إذا صار الهم همًّا واحدًا. ثم أنشأ يقول شعر:

عجبا، للمحب كيف ينام كل نوم على المحب حرام[٢]

---

١ المقصودة: رابعة العدويّة.

٢ البيت من بحر الخفيف ولم ينسب في كتب الأداب والأدب لشاعر بعينه.

ثم قال: عجبًا للخلائق ! كيف أرادوا بك بدلاً !؟ وعجبا للقلوب! كيف استأنست بسواك!؟ إِلهِي، آنست المستأنسين من أولئك، وخصصتهم بكفاية المتوكلين عليك، تشاهدهم في ضمائرهم، وتطَّلع على سرائرهم. إلهي، سرّي عندك مكشوف، وأنا إليك ملهوف؛ فإذا أوحشتني القربة آنسني ذكرك، وإذا كثرت الهموم رجعت إلى الاستجارة بك، يا رب العالمين.

قال بعضهم: مقام الأنس بالله من ضيق الصدر والوحشة من سوى الله تعالى.

وقال بعضهم: علامة صحة الأنس به تعالى ضيق الصدر من معاملة الخلق، والتبرم بهم، واستخلاء القلب لمعرفة القرب إليه تعالى.

علامته في الظاهر: أنّه منفرد في جماعة، ومستجمع في خلوته، غريب في حضره، حاضر في سفره، شاهد في غيبته، غائب في حضوره؛ كما روي عن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه في حديث كميل بن زياد حيث مدح أقواما فقال: هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فباشروا روح اليقين، واستلانوا بما استوعر منه المترفون، وأَنِسُوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان قلوبها معلقة بالملأ الأعلى.

وقال بعضهم: أهل الأُنس في الأُنس بالله تعالى على ثلاثة أحوال:

فمنهم من أنس بالذكر، واستوحش من الغفلة وأنس بالطاعة واستوحش عن الذنب.

والحالة الثانية: الأنس، هو أن يتأنس بالله تعالى ويستوحش مما سواه من الخواطر والعوارض الشاغلة. وسئل الجنيد عن الأُنس به تعالى، فقال: ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة.

والحالة الثالثة من الأُنس: هو الذهاب عن رؤية الأنس بوجود الهيبة، والقرب والتعظيم من الأنس، كما حكي عن بعض العارفين أنه كتب إلى صاحبه: «آنسك الله بقربه»، فكتب إليه صاحبه «أوحشك الله منك، ومن نفسك، ومن الكون»، يعني من الدنيا.

واعلم أن الأنس بالله [٣١أ] تعالى يثمر الطمأنينة، وهو ما ذكره في كتابه: ﴿وتطمَئِنُّ قلوبُهُم بذِكْرِ اللّه﴾[١] وفي قوله تعالى: ﴿يا أَيَّتُها النفسُ المطمئِنَّة﴾[٢] وفي قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿ولكنْ ليطمَئِنَّ قلبي﴾[٣] وذلك أنه إذا أَنِس به اطمأنَّ إليه، وهو أن يعتمد عليه، ويثق به، ويسكن إليه، ويستعين به، وسيكفيه في الاستعانة.

١ سورة الرّعد ١٣/٢٨.
٢ سورة الفجر ٨٩/٢٧.
٣ سورة البقرة ٢/٢٦٠.

باب الكلام في معنى التواضع والكبر

سئل الحارث عن التواضع ومخرجه وعلامته، فقال: مخرج التواضع من وجهين:

أحدهما: من معرفة النفس باحتقارها، ومعرفة قدرها، وكثرة أدنائها، وضعفها وفقرها، وذلها ومسكنتها، مع كثرة خلافها على الله تعالى، وتعديها. ٥

والوجه الثاني أن يعظِّم قدر الله تعالى في قلبه، فيجله ويهابه ويخشع له، فتصغَى نفسه إلى ذلك، وتَصغر عند معرفتها بقدرها.

وقيل له: ما التواضع في نفسه وما معناه؟ فقال: هو قبول الحق من الدنيء والشريف، والصغير والكبير، والغنى والفقير، استجابةً لله تعالى.

قالوا: وضدّ التواضع الكبر. والحجة في ذلك ما روي نه ما من عبد إلا ١٠ وناصيته بيد ملكه. فإذا تواضع العبد قال الملك له: "انتعش نعشك الله!" فإذا تكبر قال له الملك: "اتّضع ا تضع وضعك الله تعالى".

وسئل الحارث عن معنى الكبر، قال: اعتزاز النفس. قال: وفيه جواب آخر: وهو ترك قبول الحق. والدليل على ذلك قول النبيّ ﷺ: «الكبر أن تسَفّه الحقّ»[1] ومعنى ذلك أن يُنكِر ويتركه. ١٥

---

١ جاء فيما رواه مسلم في الإيمان ١٤٧، باب تحريم الكبر وبيانه – عن ابن مسعود قول النبي ﷺ: «... الكبر بطر الحق...» ولعل ما جاء في الأصل تفسير لهذا الحديث.

ويُروى أنّ موسى عليه السلام لما ناجى ربه فقال: يا ربّ، من أبغض خلقك إليك؟ قال: يا موسى! من تكبر قلبه، وغلظ لسانه، (وضعف يقينه، وبخلت يده)[1].

وقال بعضهم: ما تكبر إلا وضيع، ولا فاخر إلا سفيه، ولا يغضب إلا ذليل.

وقال أَنس: قام أبو بكر رضي الله عنه خطيبًا، فذكر في خطبته بدء خلقنا من نطفة تخرج من مخرجِ البول. ثم يرتفع إلى رحم المرأة ثم من علقة فما زال يذكرنا حتى يقذر أحدنا نفسه[2].

وقال مجاهد: إن الله تعالى لما غرّق قوم نوح سمعت[3] الجبال، وتواضع الجودي، فرفعه الله تعالى على الجبال، وجعل قرار السفينة عليه.

وقال ابن السماك: التواضع على وجوه: فأشرفه أن لا ترى لنفسك على [٣١ب] أحد فضلا. وكلّ من رأيت كنت له بالضمير مفضلا، ترجو رحمته، وتطلب دعوته، وتظن أن يدفع به عنك. والوجه الآخر: من التواضع أن تكون متحبّبا إلى من عرفتَه، غير محتقر لمن جالستَه، ولا مستطيل على من حضرته.

فأما التواضع اللاّزِم للعباد ان استنكفوا كفروا فهو السجود لله تعالى. وقد روي في الحديث: «من وضع جبهته (لله ساجدا) في التراب فقد برئ من الكبر.»[4]

١ وفي الأصل صفقت عينيه، وكلّت يده، وما أثبتناه نقلا للأثر من تنبيه الغافلين ص ٩٦.

٢ وفي الأصل: يذكر منا حتى يقدر.

٣ هكذا في الأصل، ولعلها سمقت.

٤ أخرجه الترمذي في السير، ٢١.

وقال ابن عباس: من التواضع أن يشرب الرجل سُؤر أخيه.

وقال مالك بن دينار: لو أنّ مناديًا ينادي بباب المسجد ليخرج شرّكم رجلاً ما سبقني والله أحد إلى الباب إلا رجل بفضل قوة أو سير.

وقال وهب: لما خلق الله تعالى جنة عدن نظر إليها، فقال حرام أنتِ على كل متكبر.[١]

وقال عمر بن الخطاب: قبَّح الله قوما يرغبون عما ملكت أيمانهم أن يأكلوا معهم.

وقال القائل، شعر:

يا مظهر الكبر إعجابا بهمته ... أبصر خلاك فإن الشر تقريب

لو أبصر الناس ما إن في بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب

هل في ابن آدم مثل الرأس مكرمة ... وهو محشو من الأقذار مضروب

أنف يَسِيل وأذن ريحها سهِك ... والعين مُرمَصة والثغر ملعوب

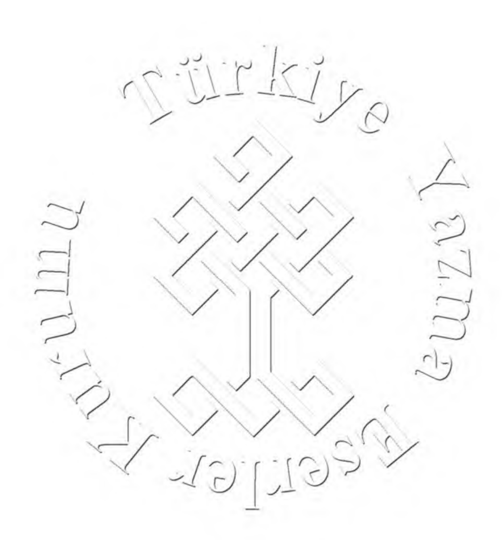
يا ابن التراب ومأكول التراب غدًا ... اقصر فإنّك مأكول ومشروب[٢]

وقال داود المكّي: كان عمر بن عبد العزيز قبل أن يستخلف تشتري له الحلة بألف دينار، فيقول: ما أجوده لولا خشونة فيه!، فلما استخلف كان يشتري له الثوب بخمسة دراهم. فيقول: ما أجوده لولا لينه! فقيل له في ذلك: أين لباسك ؟ وأين مركبك وعطرك؟ فقال إن لي نفسا ذوّاقة، وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة فوقها، حتى ذاقت الخلافة، وهي أرفع الطبقات، وتاقت إلى ما عند الله.

١ لم نعثر على تخريج لهذا القول في كتب الحديث النبوي ولعلّه من الإسرائيليات.

٢ الأبيات من بحر البسيط، ولم تنسب في كتب الأدب والآداب لشاعر بعينه.

وقال حاتم الأصم: احبيت على ثلاثة أحوال: على الكبر والحرص والخيلاء. فإن المتكبر لا يخرجه الله من الدنيا حتى يذيقه الهوان من أذل خلقه. والحريص لا يخرجه من الدنيا حتى يحوجه إلى كسرة أو شربة ولا يجد مساغا. والمختال لا يخرج من الدنيا حتى يمرغه ببوله وقذره ثم [٣٢أ] يقبضه.



باب الكلام في العقل ومعناه وصفة العاقل

سُئِلَ الحارث عن معنى العقل، فقال: قد اختلف الناس في ذلك، ولكن الجواب عندي أن العقل أنوار بصائر أسكنها الله تعالى القلوب، يفرق بها العبد بين الحق والباطل جميع ما يرد عليه من خطرات قلبه، ونزعات عدوه، ووساوس نفسه، وما تعبد برعايته. فقيل له: خبرنا -رحمك الله- عن العقول؛ أمكتسبة حتى أنّ كل من طلب العقل لحقه، أم هي موهبة؟ قال: بل العقول مواهب أسكنها الله تعالى القلوب.

ومنه يقال عقلت القلوب عن الله تعالى، أي فهمت بمواهب الله تعالى حسن الصواب، حتى انبعثت على الحد في مكاسب الحق والخير، ثم قال: فاعلم أنه ليس بجسم يجسّم، ولا حاسّة تحسّها فينظر إليها، ولكن هو صفة تدلّ على معنى وجود في صواب القول وخطئه فإذا وجد الصواب على لسان المرء دلّ على عقله، وإذا وجد الخطأ فيه يدلّ على حمقه.

فقيل له: هل يزيد أو ينقص أو هو واقف لا يزيد ولا ينقص؟ فقال هو عقلان: عقل غريزى، وعقل التجارب. وبالغريزى يدرك التجارب. فقيل فكيف نسمّيه عاقلا؟ فقال: بفهمه عن الله تعالى. كذا روي في الحديث: «افهموا عن الله أو اعقلوا عن الله تعالى.»[1]

وقال مجاهد: في قوله تعالى: ﴿وتَعِيَها أُذُنٌ واعية﴾[2] أي عقلت عن الله تعالى. وعن النبي ﷺ: «كرم الرجل دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه.»[3] وقال ﷺ ما استودع الله تعالى رجلا عقلا إلا استنقذه به.

---

١ لم نعثر على تخريج لهذا القول.

٢ سورة الحاقة ٦٩/١٢.

٣ أخرجه القضاعي في مسنده، ٣٤؛ والعجلوني في كشف الخفاء، ٢/١٠٩؛ والسخاوي في المقاصد الحسنة، ٤٠٥.

وقال قتادة: الرجل ثلاثة: رجل، ونصف رجل، ولا شيء؛ فأما الذي هو رجل، فرجل له رأي وعقل ينتفع به. وأما نصف رجل، فرجل يشاور العلماء والعقلاء، وأما الذي ليس برجل، رجل لا عقل له ولا يشاور العلماء والعقلاء.

وقال رجل لابن عباس -رضي الله عنهما-: ما رأس العقل؟ قال: يحلم عمن ظلمه، ويتواضع لمن دونه، ويتدبر ثم يتكلم. ٥

وقال بعضهم: من لم يكن عقله أحسن ما فيه هلك بأحسن خصلة فيه.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: العقل عقال الجهل، والنفس أخبث النواة.

وقال عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: العقل في القلب، [٢٣٢ب] والرحمة في الكبد، والرأي في الطحال.

١٠ وقال وهب: الغضب والهوى عدوان للعقل يقهرانه كما يقهر الرجل الفاجر ضعيفا يريد قهره.

وقال آخر: ما رأيت عاقلا قطّ إلاّ الآخرة أكبر همه.

وقال آخر مجالسة العقلاء عمارة القلوب ومحياة للعلم.

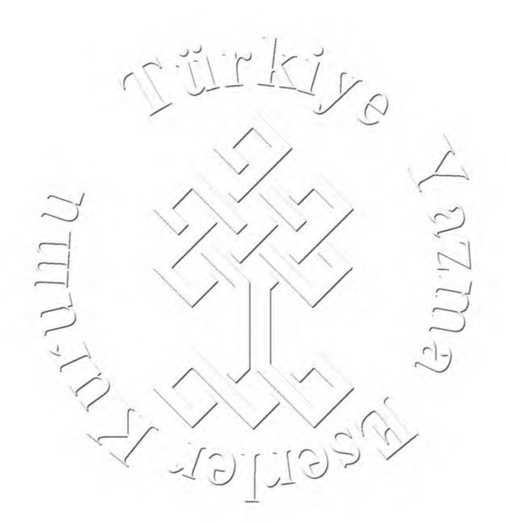
ويقال: فَخَرَ صَفوانُ بن أمية بن خلف فبلغ ذلك عمر ﷺ فأرسل إليه وقال: ١٥ ثكلتك أمك ما قلتَ؟ فهاب عمر ﷺ أن يتكلم فقال عمر: إن كان لك تقوى فإنّ لك كرما، وإن كان لك عقل فإنّ لك أصلا، وإن كان لك خلق حسن فإنّ لك مروءة، وإلاّ فأنت شرّ من الكلب.

وقال الحسن: شاة للراعي أعقل منك، يزجرها الصبي عن هواها، هل أنت مزجور بنصيحة ربك؟

قال الشاعر:

لقد قسّم الرحمن للمرء عقله وليس من الخيرات شيء يقاربه

ه تنير الفتى في الناس صحة عقله وإن كان محظورا عليه مكاسبه.[1]



١ البيتان من الطويل. ينسبان لابن دريد. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النويري دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٤، ٢٣٣/٣.

باب ذكر حياة القلوب وموتها

وسئل الحارث فقيل له: بما تحيا القلوب؟ قال: بذكر الله تعالى، ثم قال: الناس متفاوتون في حياة القلوب، وجملة ذلك أنها تحيا من وجهين: أحدهما أن يكون الرجل عاقل القلب، ولكنه مخلطٌ محبٌّ[1] للدنيا، ثقيل النفس، مشتت الهم، ميت القلب، فيمنّ الله تعالى عليه بقارع من التنبيه الذي يريد الله فيه وعده ووعيده، ويَذْكر الورود عليه، ويوحش المعاصي في قلبه وعزمه، ويريه سوء منقلب المصرّين، فيبادر إلى التوبة، ويندم على فعل القبيح، ويعزم على أنه لا يعود إليه، ويبكي على الخطيئة، ويحزن على المصيبة، وينصب الذنوب نصب عينيه، ويؤدى المظلمة، ويعين الأصحاب، ويباشر الحق، ويزجر الهوى، ويعانق الصبر ويغض عما لا يحل، ويصمت عما لا يعني، ويحفظ الجوارح الظاهرة والباطنة بالورع الشافي، ويصلح القوت، ثم يمنُّ الله تعالى عليه بالمعرفة التي زال بها عن المعاصي إلى الطاعة، فيكثر منه شكر الله تعالى على توفيقه له، ويعتقد أن لا ينوي بقلبه ولا يعمل بجارحة من جوارحه ما لا يحبه الله تعالى ولا يرضاه، ويكشف عن قلبه حتى [٣٣أ] ينظر إلى ثواب الآخرة، فيعمل بخلوص حاله من كل ذنب، ظاهرا كان أو باطنا، كثيرا أو قليلا، جليلا كان أو حقيرا، حتى يقوم لله تعالى في مقام الطهارة، فعند ذلك يعيش من موتة المقبورين في ذل المعاصي، يحيى بالتوبة، وينقذها من هلاك الهالكين في ذل المعصية، وينتقل إلى أخلاق أبناء الآخرة، يحيى بالعلم، ويعيش بالتقوى.

١ وفي أصل المتن مخلطًا محبًّا.

كما قال ذو النون، شعر:

فلا عيش إلا مَعْ رجالٍ قلوبُهم تحِنُّ إلى التقوى وترتاح بالذكر[١]

فأما الوجه الثاني من ذكر حياة القلوب، وهو المقام الشريف، وذلك أنه لما استولى على قلبه الهيبة، ودخله الإجلال والتعظيم لله تعالى، واستولى عليه طريق الإخلاص، فقصد إلى الله تعالى في مطلبه، ورغب إليه من مذهبه، فيروح بروح يقين المنقطعين إليه، وعاش بطيب حياة المتوكلين عليه، ثم نبه الله تعالى قلبه إلى أن من في السماوات والأرضين من الملائكة والخلق كلهم كالموتى لا يضرون ولا ينفعون، ولا يقدمون رِجْلاً ولا يؤخرون، وأن ليس إلا الله تعالى الضّارّ النافع، المعطي المانع، وهو الحي القيوم على كل نفس بما كسبت، كما وصف نفسه، فمات الخلق في قلب هذا الرجل، وعلم أن الله تعالى هو الذي يحيي ويميت، فعند ذلك يحيا قلبه بحياة العلم في معاملة الحي القيوم، وهذه منزلة الحياة في قلوب العارفين.

وقال: أمّا مقام ذكر الموت فهو مقام أحد الرجلين: إمّا مبتدئ مستأنف، أو منتهٍ عارف:

فأمّا مقام المستأنف في ذكر الموت فقلبه هو المبتدئ الذي يغلب على قلبه ذكر الموت، فترك الدنيا مخافة العقاب، فلمّا هاج ذكر الموت في قلبه ماتت الشهوات في نفسه، لأن ذكر الموت يميت الشهوات.

وأمّا العارف فإنه يذكر الموت محبة له، واختيارا على الحياة تبرّما بالدنيا التي قد سلا قلبه عنها، تشوّقا إليه تعالى ولقائه رجاء في النظر إلى وجهه.

---

١ البيت من الطويل، ينسب إلى ذي النون في كثير من المصادر كما هو هنا.

أمّا النظر إلى وجهه، والنزول في جواره لِما غلب في عقله من حسن الظنّ به، كما روي في الخبر أنّه قال: «تشوق الأبرار إلى لقاء الله تعالى، والله تعالى إلى لقائهم أَشْوَقُ.»[1]

قال: فأما صفة الموت في قلوب العارفين فبخلاف نعته في قلب المستأنف (إذا)[2] ذُكر الموت كرهه، وتخير البقاء لإصلاح الزاد ورمّ [٣٣ب] الشَّعَث، وتهيئة الجهاز للعرض والقدوم عليه تعالى، ويكره أن يفاجئه الموت ولم يقض نهمته في التوبة وفي الاجتهاد والتمحيص، وهو يحبّ أن يلقى الله تعالى على غاية الطهارة.

وأمّا نعته في قلب العارف فإنه إذا ذكر الموت بقلبه صادف منه موافقة مراده، وكره التخلف في دار العاصين، وتخير سرعة انقضاء الأجل، وقصّر الأمل نفسه إليه فغيره. كما روي عن حذيفة بن اليمان حين حضرته الموت «حبيبا جاء على فاقة، لا أفلح من ندم! اللّهم إن كنت تعلم أنّ الموت أحبّ إليّ من الحياة، والمرض أحبّ إليّ من الصحة. والضعة أحب إليّ من الرفعة. والفقر أحبّ إليّ من الغنى فسهّل عليّ الموت حتى ألقاك.»

وسئل الحارث عن رجليْن، أحدهما يحبّ البقاء في الدنيا، والآخر يحبّ الموت، أيّهما أفضل عندك؟ قال: كلاهما على خير. فقلت: وكيف هذا؟ قال: لأنّ هذا أحبّ البقاء في الدنيا ليزداد من الوسائل، وهذا أحبّ الموت لئلا يراه على معصية،

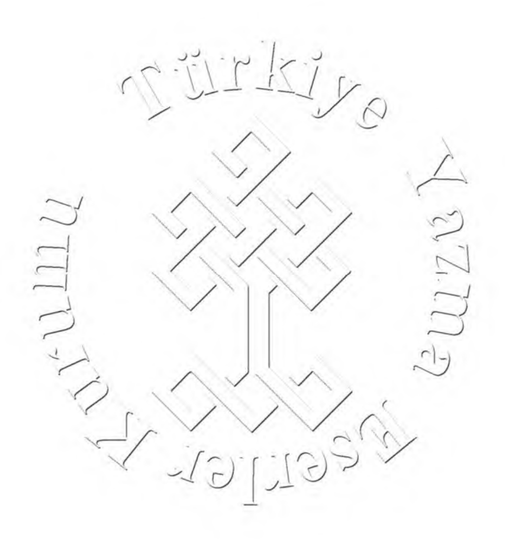
---

١ (لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً) أورده الغزالي في الإحياء ٨/٣. وقال العراقي: لم أجد له أصلاً إلا أن صاحب الفردوس خرجه من حديث أبي الدرداء ولم يذكر له ولده في مسند الفردوس إسنادا. انظر الفردوس بمأثور الخطاب للكيا أبي شجاع الهمذاني دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٦. ٥/٢٤٠.

٢ زيادة يقتضيها السياق.

وليس يأمن أيضا اعتراض الآفات، ومفاجآت فتن الدنيا، فكلٌّ على خير. وسأخبرك بأفضل من هذين الرجلين: وهو رجل قد أسقط عن قلبه في ذلك الاختيار فقال: لا هذا ولا هذا، ولكن أحب إنفاذ المشيئة لما جرى به المقدور وما أحبّ المولى فأسقط عن قلبه الاختيار، وقام بالصبر في مواطن المحن، ورضي بالقضاء، ولم يكن له اختيار إلا انتظار المقدور فيه وعليه؛ فهو الذي فوّض واستراح، وهو أفضل الثلاثة.

٥



باب في معنى الفتوة والمروءة وحسن الخُلُق وسوئه

قال بعضهم: الفتوة أن يؤثر مراد غيره على هواه فعلا وخُلُقا.

وقال بعضهم: صدق الفتوة من العبد في مواطن ثلاثة: عند أمره ونهيه بحسن القيام وحسن الانتهاء، ثم عند خلقه في حسن القضاء والصفح عن الاقتضاء، ثم عند حكمته وتدبيره في حسن الانقياد والاستخذاء.

وقال بعضهم: بني أصل الدين على المروءة والصيانة. فالمروءة في قوله: ﴿إنما نُطْعِمُكم لوجْهِ الله﴾[1] الآية.

وقال بعضهم: المروءة أن لا تشكو ولا تشتكي ولا تؤذي ولا تتأذى.

وقال بعضهم: [٣٤أ] الفتوة ثلاثة أشياء: الصدق والصبر والشجاعة. سمّى الله تعالى أصحاب الكهف فتية لاجتماع جميع ذلك فيهم.

وقال آخرون: المروءة أن لا تُسِرَّ شيئاً فتستحيي من إظهاره.

وقال آخرون: قد جمع الله تعالى المروءة في قوله: ﴿خُذِ العَفوَ وأْمُرْ بالعُرفِ﴾[2] الآية.

وقال بعضهم: مدار أمر الدين والدنيا على شيئين: ديانة تحقّقها، ومروءة تصدّقها. وقال: رأس مال العارف التودد إلى الخَلق. كما روي عن النبيﷺ قال: «رأس مال العقل مع الإيمان بالله التودد إلى الناس.»[3] فمن حُرِم حظّه من التودد حُرِم من العقل رأسُه، فقد فاته، فقيل له: وما شروط التودد؟ قال:

---

١ سورة الإنسان ٩/٧٦.

٢ سورة الأعراف ١٩٩/٧.

٣ أخرجه أبو نعيم في الحلية، ٢٠٣/٣؛ والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، ١٢٥/١٤؛ والعجلوني في كشف الخفاء، ٤٢١/١؛ والسخاوي في المقاصد الحسنة، ٣٦.

أدنى شروطه المداراة، والمداراة ديانة، لما روي عن النبي ﷺ قال: «أمرت بمداراة الناس كما أمرت بأداء الفرائض.»[1] فإن سبقت المداراة فهي المداهنة، والمداهنة مداراة مدخولة وفي ضمنها مداهنة. وذلك ما أشار إليه في قوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هيَ أحسن﴾[2] الآية.

٥ وقال بعضهم: أصل سوء الخُلق مطالبة غيرك أن يوافقك دون أن تطالب نفسك بموافقة غيرك، وإن علامة سوء الخلق أن لا تحتمل معاملة سيّء الخلق لتستر به سوء الخلق، وهو معنى قوله: ﴿ادفع بالتي﴾

وقال بعضهم: العارف يعاتب نفسه ولا يعاتب خُلقه، علامة من بينه وبين نفسه معاتبة أن لا يكون بينه وبين خلقه عتاب.

١٠ وقال بعضهم: أصل سوء الخُلق عن ضيق القلب وضيق القلب على قسمين: أدناه وأهونه أن لا يتسع لمراد الخَلق، وأقصاه وشره أن لا يتسع لمراد المولى.

وقال بعضهم: إن الله تعالى طالع القلوب فطالبها بشيئين: بذكر الله، وملاطفة الخليقة، وطالب سائر الأعضاء بشيئين: بتعظيم الرب، والشفقة على الخلق.

قالت عائشة -رضي الله عنها-: (لله) [3] دَرّ التقوى، ما ترك لذى غيظ شفاء.

١٥ وقال بعضهم: كمال المروءة عبارة عن كمال العبودية.

---

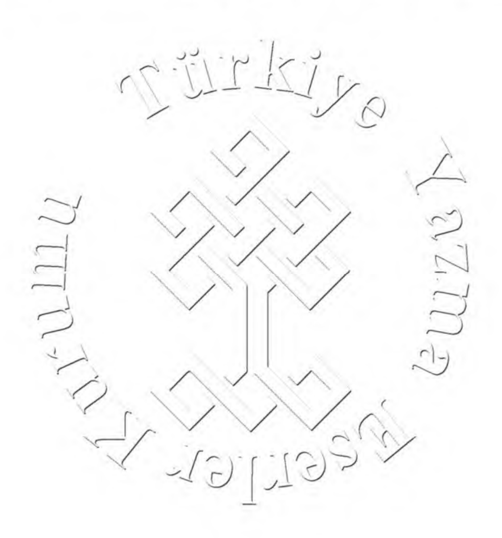
١ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ٢٢١/٥.

٢ سورة المؤمنون ٩٦/٢٣, سورة فصّلت ٣٣/٤١.

٣ زيادة يقتضيها السياق.

وقال بعضهم: غاية حسن الخُلق أن لا تذهب بأجرة القَصّار، معناه: أن من ناوأك وشتمك وعاداك قصّارُك الذي يغسل دَرَنك ووَسَخك، فإن كافأته على سوء صنيعه فقد أتلفت [٣٤ب] أجرةَ قصّارِك.

قال: ومن شرائط كمال المروءة السخاءُ. قال: ومراتب السخاء ثلاث: أولاهنّ التوقي من سوء الطمع فيما لا يملكه، ثم التوقي من لوم الظفر فيما يملكه، ثم الترقي إلى درجة الإحسان إلى مَن أنت متألم منه. ٥



باب الكلام في الدعاء وفائدته، والفرق بينه وبين الاستدعاء

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «الدعاء عبادة.»[1]

وقال الله تعالى: ﴿يدعُون ربَّهُم خوفا وطمعا﴾[2]

وقال بعض الناس: الناس رجلان: سائل وداع ؛ فالسائل في حدّ الاختيار، والداعي في حد الاضطرار. فما دام مختارا فهو سائل. وإذا صار مضطرا فهو داع. فللسائل المثوبة. وللداعي الإجابة.

قال تعالى: ﴿أمّن يجيب المضْطَرَّ إذا دعاه﴾[3]

قال: ﴿وإذا سألك عبادي عني﴾[4] الآية.

وفي الخبر: «هل من سائل فيعطى، هل من داع فيستجاب.»[5]

فقد ظهر بالنص أنّ للداعي إجابة وللسائل مثوبة. وقال تعالى: ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله﴾[6] الآية.

قال الحسن: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا أحبّ الخَلق إلى الله تعالى، عمل لله تعالى، ودعا إلى الله، وقال: ﴿إنني من المسلمين﴾[7] أي من المفوِّضين أمري إلى الله، التزم التفويض ودعاء الخلق إليه.

---

١ أخرجه السيوطى في الجامع الصغير، ١/٥٦.

٢ سورة السّجدة ٣٢/١٦.

٣ سورة النّمل ٢٧/٦٢.

٤ سورة البقرة ٢/١٨٦.

٥ أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، ١٧٠.

٦ سورة فصّلت ٤١/٣٣.

٧ سورة فصّلت ٤١/٣٣.

وقال بعضهم: ودعاء العامّيّ بالأقوال، ودعاء الزاهد بالأفعال، ودعاء الصادق بالأحوال، ودعاء والعارف بالاستغاثة والانتظار والاضطرار.

وقال في قصة إبراهيم :﴿إن إبراهيم لَأوّاه حليم﴾[1] الأوّاه في الشاهد ليس من صفات الحليم؛ ولكن معنى الأوّاه الدُّعَاءُ المضطر إليه تعالى.

٥ وقال بعضهم: «الدعاء مخ العبادة.»[2]

وقال بعضهم: حقيقة الدعاء وفائدته إظهار الفاقة والفقر إليه تعالى. وإنما يفتقر إلى الله تعالى عند رؤيته ضعف الخليقة، وحاجتهم إليه فيكون علمه بموضع الاستدعاء نفس العبودية. وقد يكون الدعاء استدعاء بالحال كقوله: ﴿الآن خفَّفَ الله عنكم وعَلِم أنّ فيكم ضعفا﴾[3] فإنما خفف عنهم بالحال، وهو مشاهدة الضعف

١٠ والاضطرار. وكذلك قوله: ﴿فلما نسوا ما ذُكّروا به﴾[4] الآية. فإنما هلكوا بتركهم الاستدعاء في الحال وهو النسيان والغفلة واتباع الشهوات.

وقال بعضهم: أرفع الأشياء للملمات ثلاث خصال: إخلاص الدعاء [٣٥أ] وصدق التقى، ورحمة المبتلى.

قال ابن عيينة: إذا طلبت حاجة فتيسّر لك قضاها الله تعالى، فاسأل الله

١٥ الجنة، فعسى يومك الذي يستجاب لك فيه الدعاء.

١ سورة التّوبة ١١٤/٩.

٢ روى الترمذي هذا اللفظ حديثا في الدعوات، ٢، برقم ٣٣٧١، باب فضل الدعاء، وقال حسن غريب، وضعفه الألباني.

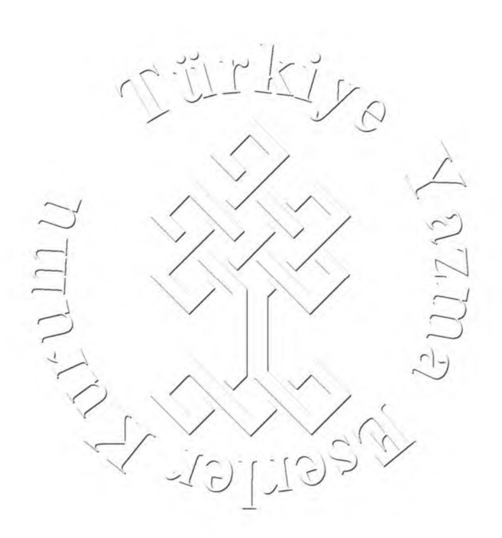
٣ سورة الأنفال ٦٦/٨.

٤ سورة الأعراف ١٦٥/٧.

وقال بعضهم: لو خيرتُ في الدعاء لدعوت الله الثبات على الإسلام، فكلّ يوم تثبت على الإسلام فهو اليوم الذي يستجاب لك فيه الدعاء.

وقال: واعلم أن الدعاء لا يغير حكما سبق، ولا يرد قضاءً نفذ، ولكنه إظهار التضرع وحاجة وفقر.

ه قال الحسن: الدعاء زينة الآلة، وحلية الأدوات، بإظهار الحاجات إلى رب السماوات.



باب الكلام في ذكر الفكر والاعتبار، وصفة العارف في السيرة والأخلاق

اعلم أن إهمال القلب عن الفكر إهمال النفس وإبطال العمر. قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾[1]

وقال بعضهم: بل عليها أقفالها حتى يتولى اللّه فتحها. ٥

وسئل بعضهم: عن قوله ﷺ: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة.»[2] فقال: هو أن يتفكر في أربع خصال:

أولها، تفكر في عظمته فتولّد منه المعرفة به تعالى.

والثاني، التفكر في الآية فيتولد منه محبّته والشوق إليه.

والثالث، يتفكر في سلطانه وقدرته فيزيد بذلك هيبة من اللّه تعالى وإجلالا. ١٠

والرابع، يتفكر في سوء صنيعه فيتولد من ذلك الحياء في قلبه لربه.

وقال بعضهم هو التفكر في ستة أشياء:

الأول، في رزق مكفول.

الثاني، في أن عليه موكلين يكتبان عليه صنائعه وأنفاسه.

الثالث، يتفكر في أنه تعالى مطلع على سرائره. ١٥

والرابع، أن يتفكر في أنّه مقيّد بذنوبه، مرتهن بخطاياه، فيجب أن يفكّه عنها بالتقوى.

---

١ سورة النّساء ٨٢/٤.

٢ أخرجه العجلوني في كشف الخفاء، ٣١٠/١.

والخامس، يتفكر في أنّ له عدوا يكاتم العداوة فيجب عليه الاحتراز منه.

والسادس، يتفكر في أنّ ملك الموت يطلبه طلبا حثيثا يجب أن يستعدّ لِقدومه عليه.

وسئل الحارث عن الاعتبار والتفكر، قال: الاعتبار نظرة للتفكر، وزيادة في الإيمان؛ ٥ لأنه إذا نظر في المفطور[1] علم الفاطر فكلما ازداد فكره ازداد تعظيما لله تعالى. والناس متفاوتون فيه على قدر صحة العقول، وقوة الإيمان، وعلى ما ورد إلى القلوب من ذلك من اتساع المعرفة، وعلى قدر طهارة القلوب. لأن الاعتبار إذا خرج من قلب [٣٥ب] طاهر يقف في الغيب ولا يرده مانع، وأقوى ما يستعان به على طهارة القلوب قطع الشهوة، والميل إلى الرخصة، والفرار من تأويل الغرّة مع التعليل، فإذا طهرت القلوب ١٠ من أدناسها انجلى عنها صدؤها، فأضاء فيه، واستنار قلبه.

فأمّا صفة العارف فقد قال بعضهم في أوصاف العارف: علت همته فتفرغت عن كل دنيٍّ فانٍ، وخفّت مؤنته ففارق الأشياء فعلاها، ثم نزل عنها ولم يقف عليها، طابت نفسه بما عاين من أنواع الأذى، ولم يجد ألم البلاء، عرف نفسه فاهتدى، وعرف الزمان فأمن الردى، وعرف الدنيا فاستراح من العناء، وعرف الخلق فلم ١٥ يسترد ولم يتأذّ، تزوّد من دار البلاء ذِكْرَ من يعيش بذكره في طول البلاء، لم يطمئن في الوطن المستعار، عبادته دوام المراقبة لمشاهدة من يشاهد على الدوام، جمع إلى صدقه التحقيق والتصديق فتعجل القيامة على نفسه، فزايل الأسباب كلها بأسرها، وقطعها بأسرها، فعاش بالله تعالى، وعاش لله، وترك الاعتماد على ما سوى الله تعالى، قد حسن اصطباره واختياره واستغفاره واستصغاره.

---

1 وفي الأصل المنظور.

سئل يحيى بن معاذ الرازي عن صفته فقال: العارف في الدنيا واحد من الناس، وفي العقبى واحد من الناس، اعتصم بالله تعالى في الانقطاع عن غير الله تعالى، يأنف أن يخطر بباله دون الله، حرفته الحلم والاحتمال، والتبري من الاحتيال، بمجرد المعبود وتودد إلى العبيد وتفرد مما يبيد.

٥ وقال بعضهم: ثمرة المعرفة الإقبال فمن لم يكن فيه زيادة فهو في نقصان. وعلامته في الإقبال الرضا والاحتمال. ومعنى الاحتمال، هو الاستقلال بترك الاستعانة احتيال.

وقال بعضهم: كل معرفة لم تتم ثلاثا فهي وبال: تبديل الاخلاق، وتبديل الأعمال، وتبديل العِشرة بالرفق والاحتمال.

١٠ وسئل بعضهم: عما ينفع من تثمير المعرفة؟ فقال ينفع ذلك من شيئين: أحدهما، اعتراض الشهوة. والثاني، استحكام الغفلة. لأنّ المعرفة مغلوب الشهوة، وبذر الشهوة طول الأمنيّة، فإذا مالت النفس [٣٥أ] إلى مُناها فقد حجبت عن الله تعالى، ومتى حجب القلب بالركون إلى شيء فقد انقطعت ثمرة المعرفة.

وقال بعضهم: لكل شيء ثمرة، وثمرة المعرفة أربع:

١٥ ثمرة بينه وبين الله تعالى، وهي الخشية.

وثمرة بينه وبين الخلقَ، وهي التواضع.

وثمرة بينه وبين نفسه، وهي الصبر.

ولبّ العقل إضافتك الأمر إلى مَن به خُلقتَ.

باب الكلام في ذكر المقامات وترتيبها، وكيفية الترقي من البداية إلى النهاية

اعلم، أنّ مقام العبد هو الذي يقوم بالعبد في الأوقات مثل مقام الخائف والراجى والصابر والمتوكل، وذلك مقام العبد بظاهره؛ وباطنُه في هذه المعاملات والمجاهدات والعبادات. فمتى أقبل العبد في شيء منه على التمام فهو مقامه حتى ينتقل منها إلى مقام آخر.

فأما المكان، فهو لأهل الكمال والتمكين والنهاية، فإذا كَمُل العبد في مقامه فقد عَبَرَ المقاماتِ والأحوال فيكون صاحبَ مكان. وقال الشاعر:

مكانك من قلبي هو القلب كله   وليس لشيء فيه غيرك موضع[1]

ورتب بعضهم المقامات على عشرة أوجه: فقال، أولها: التوبة. وقد ذكرنا شرائطها. فإن أولها، الندم على ما مضى من الذنوب. والثانية، نية صادقة على ترك الذنوب، ثم إصلاح تبعات الناس في إصلاح المطعم والمشرب والملبس، ثم تطهير القلب من الأدناس، من الغِلّ والغش والحسد والمكر وطول الأمل ونسيان الأجل، ثم بعده مقام التائبين لأنّ من ندم على شيء حقيقة أورثه ندمه خوفه، وخاف أن لا تقبل توبته.

وللخوف درجات كلها اضطراب وقلق، وحقيقته لزوم الورع للقلب من فعل فعله فيما مضى، أو حال هو ملابسه، أو معنى يرقبه في مستأنف الأحوال، فخوف العقوبة يسكن عند ذكر الرحمة. وخوف القطيعة يسكن عند ذكر الاختيار للإسلام، والخوف الذي لا يسكن خوف الهيبة.

١ البيت من الطويل. وينسب للحلاج.

ثم بعد ذلك مقام الراجين، لأن الرجاء هو التأميل والطمع، والخوف لا يخلو من رجاء فيه، لأنّ من خاف وقوع شيء رجا زواله، ومن رجا أن يناله خاف فوته. والمؤمن يميته الخوف، ويبعثه [٣٥ب] الرجاء، وحسن الظنّ.

ثم من بعد ذلك مقام المريدين، لأنه إذا انقطع العبد من ذنوبه إلى التوبة هيّجه خوفه ورجاؤه، وحمله على تصحيح الإرادة حتى يصرف همه كلها إليه. ٥

والإرادة الأصل الذي منه ينشعب الهموم؛ لأنه بمنزلة عِرق الشجر إذا رسخ في أصل الأرض تفرع منه الأغصان.

وتحقيق المريدين في سبعة أشياء:

أولها: انقطاعهم عما يشغلهم عن مقصودهم.

والثاني، إعطاؤهم المجهود من أنفسهم. ١٠

والثالث، تحمّلهم كل مؤنة تعرض لهم في طريقهم.

الرابع، أن لا يستقصي دون البلوغ ودون الموت.

والخامس، ما نالوا منه يعظمونه دقّ أو جلّ.

والسادس، لا يعجلون في سيرهم ولا يفترون.

والسابع، أن لا يصحبوا من لا يسلك مسلكهم ولا يرد مواردهم. ١٥

وصحة الإرادة في ثلاثة أشياء:

منها، أن يريد الله من كل شيء.

والثاني، يريد الأشياء كلها من أجله.

والثالث، أن يجعل في نفسه أن لا يريد إلا ما يريد على ما أمره به، وملاك ذلك أن يعظم نفسه عن لذات الدنيا وشهواتها.

وآفة المريد في أكل الشهوات، والاشتغال باللذات.

فقيل إنّ الملائكة تبكي عليه رحمة له، وإن العبد المريد، الذاهب إلى ربه، الفارّ من خلقه فهو أبدا بعيد من المنزل، حتى إن أراد الدنيا أرادها لله تعالى، حتى يبيدَ بها خلة المسلمين، ويتقوّى بها على طاعة ربّ العالمين، ويجاهد بها أعداء الدين. ٥

ثم بعد ذلك مقام الصالحين، لأنّها إنما يتحقق تصحيح إرادته باستيفاء الأعمال الصالحة، كما قال أبو سليمان الداراني: لو خيرتُ بين الركعتين ودخول الجنة لاخترت الركعتين، لأني في الجنة لحظّ نفسي، وفي صلاتي لحظي من الله تعالى. وهو مرادي. ١٠

ثم إنهم على أربع درجات: عابد وعالم ومحب وعارف:

فالعابد يجد حلاوة العبادة لمعرفته بما وعد من الثواب.

والمحب يجد حلاوة الخدمة لما يجد من لذة نسيم القرب وطيب المناجاة.

والعارف يجد حلاوة الطاعة لنظره إلى الإحسان السابق والاصطفاء للخدمة.

وقال بعضهم: العبّاد [٣٦أ] يعملون[١] على ظاهر الفضائل في الرغبة في الثواب: والعارفون لا يعملون[٢] إلا على إرادة الله تعالى، وأنه أَهَّلهم لذلك، وشرح صدورهم للحرص عليه، فهم[٣] على نور من ربهم. ١٥

---

١ وفي الأصل يعلمون.
٢ وفي الأصل يعلمون.
٣ وفي الأصل: فهو.

وقال بعضهم: الواجب على العامل أن يعمل بالعلم، ثم يصابره بصحة العزم حتى يتمِّمَه كما أمره الله تعالى، ثم يسلّمه إلى ربه بصحة الإخلاص، حتى كأنه لم يعمل لله تعالى شيئا.

ثم من بعد ذلك مقام المحبين. لأن من أقام على خدمة الله تعالى أثمره المحبة، ومعنى محبة العبد لربه: هي قرب قلبه منه بالاستنارة والفرح به، والأنس بذكره، وعقد الولاية والإخلاص له.

ثم من بعد ذلك مقام الولاية؛ لأن من أحب الله تعالى تولاه ونصره وكَلأَه. وقال تعالى: ﴿وهو يتولّى الصالحين﴾[1] وقال: ﴿ألا إنّ أولياءَ الله لا خَوفٌ﴾[2] الآية.

ثم من بعد ذلك مقام المقربين؛ لأن المقرب المأخوذ من نفسه، الممكن باتخاذ الحُظوة والقربة، وقد جعلهم الله أصنافا ثلاثة، فقال: أصحاب اليمين والمقربين والسابقين.

وقال بعضهم: معاملة الولي من الله النظر في الملكوت، ومعاملة الصديق من الله العرش، ومحبة العارف من الله من حيث كان.

١ سورة الأعراف ١٩٦/٧.
٢ سورة يونس ٦٢/١٠.

ثم مقام المشتاقين، لأنه إذا ذاق طعم القرب اشتاق، والشوق هيجان قلب المحب إلى المحبوب، لأن المشتاق يزداد حركة وقلقا ووَجْداً، فلم يجد لنفسه راحة.

ثم من بعد ذلك مقام العارفين. وهو المقام العاشر. وحقيقة المعرفة :طلوع الحق على الأسرار بلطائف الأنوار، فأعرفهم بذلك أشدّهم إقرارا بالعجز عن ٥ إدراك عظمته.

وقال بعضهم: المريد يطلب ربه بأعماله، والعارف يطلب ربّه بأنواره، والخائف يبقى على ذكر النار، والمشتاق يضحك من وصف ما في الجنة، والعارفون المتحيّرون في عظمة الله تعالى.

وقال بعضهم: المعرفة أولها طلب، وأوسطها تعَب، وآخرها حيرة.

١٠ قال بعضهم: المعرفة حيرة، ثم إيصال، ثم حيرة.

باب الكلام في الفرق بين الداخل والمُدخَل في صفة العالم، وسِمة العارف، والفرق ما بين الزاهد والعارف

قال بعضهم: الناس في مذاهب المعرفة رجلان: رجل، أُدخل فيه على طريق [٣٦ب] المن عليه، وآخر ألقى نفسه فيه؛ فمن أُدخل في أمر عصم فيه، ومن دخل بنفسه وُكِلَ إليه أصله، قوله ﷺ: «لا تسأل الإمارة»[1] الحديث. والأنبياء أُدخلوا معصومين فيها، ومثاله في الحكم الظاهر: إنّ الكلب إذا اصطاد بنفسه من غير إرسال صاحبه لم يحل صيده، ومتى أرسله صاحبه فأخذ الصيد حلّ.

وعلامة من ألقى نفسه فيه ثلاث: دوام خوفه فيما تقدم من تقصيره، وفرحه بالموجود بإدخاله فيه، واعتصامه بمدخله فيه لا بحيلة.

وقال بعضهم في الفرق بين الصادق والكاذب: أن الصادق يترك شهواته لينال بها شهوة أخرى، وهذا قد يخفي وجهه على النظار المبرّز.

وقال بعضهم: الدخيل يطلب الاشتهار بلا تحقيق، والمحقق المدخل يطلب التحقيق بلا اشتهار.

قال بعضهم: في الفرق بين الصادق والكاذب: إن الكاذب غلب ظن الناس على ظنه بنفسه، فأعجب بعمله، والمحقق الصادق حقق سوء الظن بنفسه فنجا من الإعجاب بفعله، ولم يغلب ظن الناس على ظنه بنفسه، فلم يشك في نفسه. قال: وعلامة كذب من زعم أنّه سيّء الظن بنفسه سرعة تغيره على من أظهر عنده معايبه.

---

١ أخرجه البخاري في الأحكام، ٥، ٦؛ الإيمان، ١؛ الكفّارات، ١٠؛ مسلم في الإمارات، ١٣؛ الإيمان، ١٩.

وقال بعض الحكماء: وجدت بابين مفتوحين في كلام الرجال؛ بابا من النور، وبابا من النار، فباب النور ينورهم، وباب النار يحرقهم، فطوبى لمن سدّ باب النار بنوره، وويل لمن سد باب النور بناره، ولكل باب ثلاثة أطباق: فإذا كان الكلام بالشهوة والغفلة والسرعة فهو من النار، وإذا كان بالمعرفة واليقظة والسكينة فهو من النور. ٥

فأمّا إبانة شرف العارف على الزاهد والفرق بينهما: فقد قال بعضهم: الزاهد يطلب الغنيمة، والعارف يطلب السلامة، والعارف جهده في أحكام الفرائض، والزاهد يطلب الفضائل والزاهد يشتهر بلا تحقيق، والعارف يتحقق بلا تشهير، والعارف يستدعى الإجابة بأحواله، والزاهد يستدعيه بأقواله والزاهد يزهد في الدنيا، والعارف يزهد في السكون إلى سوى المولى، والزاهد يتمنى ويهوى، والعارف لا ١٠ يخطر بباله سوى القضاء، [٣٧أ] والزاهد ينظر إلى الفراغ من عمله، والعارف ينظر إلى من استعمله، والزاهد يرغب في كثرة العمل، والعارف يرغب في حسن العمل، قوله تعالى: ﴿لِيبلوَكم أيّكم أَحسنُ عملا﴾[1] وحسن العمل في إخلاصه وإكماله، فإخلاصه أن لا يريد غير الله تعالى، وإكماله أن لا يتمنى على الله تعالى.

قال الأنطاكي: الزاهد تَرَك الدنيا، فحَزِن عليها فتوهم أن حزنه على الدين ١٥ فأحال المنَّة على دينه؛ وإنمّا حزنه على دنياه. والزاهد ينظر إلى عمله، والعارف ينظر إلى ربه تعالى. حِرفة الزاهد الجهد، وحرفة العارف تصحيح القصد. ويقال يعرف أربعٌ بأربع؛ العامّ بالأفعال، والقرّاء بالأخلاق، والعلماء بالزهد، وأهل المعرفة بالسكون والوقار.

---

١ سورة الملك ٦٧/٢.

وقال بعضهم: أوّل درجات الزهد التوبة، ثم الزهد، ثم التقوى، ثم الحلم، ثم الاحتمال.

قال ذو النون: وأوّل درجات العارف الاحتمال؟ من الافتقار ثم الاتصال، ثم التحير وقال: الزاهد من قد وطّن نفسه الكمالَ لما نال من الأفضال. والعارف لا يعتقد لنفسه حالا، ولا يثبت لها كمالا، ولا يعد في الحمد خِصالا، فهو في الكمال وفيّ، وفي كلها عريّ. ٥

وقال بعضهم: الكمال في الانتباه فهو على درجات ثلاثة: أوّلها: الانتباه لأمر اللّه تعالى في حسن القيام به، وهو معرفة العبادة، والثانية الانتباه لحكم اللّه تعالى في حسن التسليم، وهو معرفة الاستقامة، والثالثة، الانتباه عن اللّه تعالى وحسن الانقطاع إليه وذلك معرفة الصفوة. ١٠

وسئل بعضهم: عن بدء المعرفة فقال: بدؤها حيرة، ونهايتها حيرة. فالحيرة الأولى من قبل نفسه إذا شاهد فيها التخلف والإدبار مع عظيم مِنَنِ الجبّار. فإذا تمّ قصده تحير في صفات معبوده ولا يعرف غيره وهو الوله.

وقال بعضهم: غاية هذا الأمر ونهايته أن يكون لنفسه ولغيره، وأن يكون في الحقيقة: لا لنفسه ولا إلى غيره، بل يكون لله تعالى. ١٥

وقال بعضهم: نهاية معرفة العارفين في قوله تعالى: ﴿لا أُحِبّ الآفلين﴾[١] عرف العارف من لم يزل، ولم يسكن إلى من أفل.

---

١ سورة الأنعام ٦/٧٦.

وقال بعضهم: الغاية هي الحيرة، فإذا بلغها انقطعت عنه الأسباب، وزال عنه الارتياب، وتحقق فقره لمولاه [٣٧ب] إلى مولاه.

وقال بعضهم: النهاية هي الهداية إلى طريق المعرفة، ولا نهاية له غير ذلك، كما قيل: من عرف الطريق فقد وصل.

٥ وقال بعضهم: الوصول إلى الحقائق في هذا الباب يقطع العلائق.

ويحكى عن أحمد بن عاصم الأنطقي هذا الحرف يقال إنه ختم كتبه بها. وهي أن قال: من لم يوطن نفسه على ترك كل شاغل مَرِضَ قلبُه، ولم ينل حاجته، ومن فعل ذلك وجد الله أمامه، ومن يخادع الله يخدعه الله تعالى، والسلام.

باب الكلام في عبارات القوم، والكشف عن مقاصدهم وأغراضهم فيها

فمن ذلك قولهم: حال، ومقام، ووقت، ووارد، وخاطر، وغائب، وحاضر، ووجد، وهجوم، وغلبة، وتواجد، وسكون، وتساكن، وحيرة، وتحاير، وإرادة، ومريد، وحق، وحقيقة، وخصوم، وصفاء، وشاهد، ومشهود، وفناء، وبقاء، وجمع، وتفرقة، وشطح، ووصول، ورسم، واسم، وسرّ، ومناجاة، وحجاب، ودعوى، ولسان، وعقد، وهَمّ، ومَحْو، وسكر، وكَوْن، وبون، ووصل، وسبب، ونسب، وقطع العلائق، وتجلي، وتخلي، وعلّة، وأزل، ولحا، وانزعاج، واصطفاء، ولطيفة، وشرب، وذوق، وعين، واصطلام، ورمز.

فأمّا معنى قولهم الحقّ فالمراد به الله تعالى. وإذا قيل من الحقّ للحقّ فالمراد به لله بالله.

وأمّا الحال :فهو ما يتحوّل فيه العبد، ويتغير به من نوازل قلبه، فإذا صفا تارةً قيل له حال.

وقال بعضهم: الحال ما لا يزول، فإذا زال فلم يكن حالا.

والمقام: هو الذي يقوم فيه العبد.

والمكان: ما يتمكن فيه.

والمكاشفة والمشاهدة يتقاربان في المعنى، وكذلك المحاضرة وهو زوائد اليقين والمعرفة.

واللوائح ما يلوح الأسرار الظاهرة، يقال: لاح الأمر إذا ظهر، وكذلك اللوامع من بوادي اللوائح والحقوق، ومعناها الأحوال والمقامات والقصود والمعاملات.

والإشارة: ما يخفى على المتكلم كشفه بالعبارة للطائف معناه.

والإيماء إشارة أيضا إلا أنها تتعلق بالآلة. ولهذا قال الشبلي: مَنْ أَوْمى إليه فهو كعابد وثن لأن الإيماء لا يصلح إلا للأجسام.

وأمّا [٣٨أ] الرمز: فهو إشارة أيضا، وهو أن يكون تحت كلامه مراد لا يدل عليه ظاهره. ٥

وأمّا الصفا :فما خلص من ممازجة الطبع ورؤية الفعل والنظر إليه.

وأمّا صفاء الصفا: فهو اتصال ذلك مع السلامة من العلل.

وأمّا الفوائد: فهو ملاطفة الحق لأهل معاملته في وقت الخدمة بزيادة الفهم.

وأمّا المشاهدة: فهو الحق شاهد في ضمير العبد وسره مطلع عليه، والشاهد أيضا بمعنى الحاضر، والمشهود: ما يشهده الشاهد. ١٠

وقال بعضهم: الشاهد: الحق، والمشهود: الكَوْن، والجميع عبارة عن إشارة مَن أشار إلى الحق بلا خلق.

والمعرفة: إشارة لمن أشار إلى الكون والخلق، فمن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد البارئ، ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة فقد أنكر قدرة القادر، فإذا جمع بينهما فقد وحّد. ١٥

وأمّا الغيب: فهو غيب القلب عن مشاهدة الحق لحضوره.

والحضور: حضور القلب لما غاب عن عيانه بصفاء يقينه حتى يكون كالحاضر عنده، وإن كان غائبا عنه أيضا وكذلك الصحو والشكر، ومعناهما في معنى الغيبة والحضور، وإن كانا أتم وأبلغ في المعنى.

وأمّا الفناء والبقاء :فهو فناء صفة النفس، والبقاء بقاء العقد على ذلك كذلك ٥ هو فناء رؤية العبد لفعله بقيام الله له في ذلك.

فأمّا المريد: فهو الذي صح له الابتداء، أو دخل في جملة المنقطعين إليه تعالى باسم، وشهدت له قلوب الصادقين بصحة إرادته.

وأمّا المراد: فهو العارف الذي لم يبق له إرادة، وقد وصل إلى النهايات، وعاين الأحوال والمقامات.

١٠ وأمّا المبتدئ: المستأنف فهو الذي يبتدئ بقوة عزمه في سلوك طرقات المنقطعين إليه تعالى، ويتكلف آداب ذلك، ويتأهّب الأدب بالخدمة.

وأمّا الوجد: فهو مصادفة القلوب لصفاء الذكر كان قد فقده.

والتواجد: استدعاء الوجد والتشبه في تكلفه بالصادقين من أهل الوجد.

والوقت: ما بين الماضي والمستقبل.

١٥ والبادي: الذي يبدو أعلى القلب من حيث حال العبد.

والوارد: ما يرد عليه [٣٨ب] يستغرقه، وتلك حالة بعد البادي.

والخاطر: تحريك السّرّ لا لبث له.

والواقع: ما يثبت ولا يزول.

والقادح قريب من الخاطر، إلاّ أن القادح لأهل الغفلة، والخاطر لقلوب أهل اليقظة.

والحيرة: بديهة ترد على قلوب العارفين بأملهم وحضورهم، وتحجبهم عن الفكرة.

٥ والتحيّر: نازلة تنزل بقلوب العارفين بين اليأس والطمع في الوصول إلى مطلوبه، لا يطمعهم في الوصول، ولا ييئسهم[١] في الطلب فيتحيّرون.

والطوالع: أنوار التوحيد تطلع على قلوب أهل المعرفة فتمحو ما فيها بسلطان نورها.

والكشف: بيان ما يستتر عن الفهم، فينكشف للعبد حتى كأنه رأي العين.

١٠ قال النوري: مكاشفات القلوب بالاتصال.

فأمّا الشطح: فكلام يترجمه الإنسان عن وجدٍ مقرون بالدعوى.

والصول: الاستطالة باللسان من المريدين والمتوسطين على أبناء جنسهم.

فأمّا الصادق: فإنه يصول بالله لقلة المساكنة إلى ما سوى الله تعالى. كما قال ﷺ: «اللّهمّ بك أصول، وبك أحول.»[٢]

١٥ فأمّا الذهاب: فهو بمعنى الغيبة، ويراد بذلك غيبة القلب عن المحسوسات بمشاهدة ما يشاهده.

وأمّا المناجاة: فهي مخاطبة الأسرار عند صفاء الأذكار للملك الجبار.

ورؤية القلوب: هي نظر القلوب إلى ما توارت في الغيوب عند حقائق الإيمان.

---

١ وفي الأصل: يوسيهم.

٢ أخرجه أحمد في مسنده، ١/١٥٠؛ والهيثمي في مجمع الزوائد، ١٠/١٣٠.

والرسم: ما يرسم به ظاهر الخلق برسم العلم، ورسم الخلق، ويمتحي ذلك بإظهار السلطان عليهم.

والوسم: ما وسم الله به المخلوقين في سابق علمه بما شاء كيف شاء، فلا يتغير عن ذلك أبدا ولا يطلع عليه أحد.

٥ والحجاب: هو حائل يحول بين الشيء المطلوب وبين طالبه.

ومعنى الدعوى: إضافة إلى النفس بشيء لها، ولذلك قالوا: أغلظ حجاب بين الله تعالى وبين العبد الدعوى.

واللسان: معناه البيان عن علم الحقائق.

والسر: ما خفي عن الخلق، فلا يعلم به إلا الحق، وسر السر ما لا يحسن ١٠ به السر.

والعقد: عقد القلب.

والهَمّ: جمع الهموم والإرادات [٣٩أ] حتى يكون همًّا واحدا.

والمحْق: ذهاب الشيء حتى لا يبقى له أثر، وكذلك المحو والطَّمْس.

والكون: والمراد به جميع ما كوّنه الحق وخلقه.

١٥ البَوْن: المفارقة، وهي البينونة.

والوصل لحوق ما فات.

قال يحيى بن معاذ الرازي: "من لم يغض عينه عن النظر إلى ما تحت العرش لم يصل إلى ما فوق العرش." والمراد بذلك من لم يلحق ما فاته من مراقبة الذي خلق العرش.

٢٠ والفصل: فوت الشيء الموجود من المحبوب.

والسبب: الواسطة التي بين الخلق وبين الله تعالى.

والنسبة: الحال التي يتعرف بها صاحبها.

قال النوري: كل ما رأته العيون نسب إلى العلم، وكل ما علمته القلوب نسب إلى اليقين.

٥ وأمّا العلائق: فهي الأسباب التي علقت على العبد، فشغله ذلك عن الله تعالى حتى قطعه.

والتحلِّي: التشبه والتلبس بالصادقين وأحوالهم.

والتجلِّي: إشراق أنوار الحق على قلوب المقبلين إليه.

والتخلِّي: هو الإعراض عن العوارض الشاغلة عنه ظاهرا وباطنا، وهو ١٠ اختيار الخلوة، وإيثار العزلة.

والتلوين: هو تلون العبد في أحواله، قال قوم: علامة الحقيقة رفع التلوين بظهور الاستقامة؛ وقال قوم: علامة الحقيقة التلوين، لأنه تظهر فيه قدرة القادر، فيكتسب منه العِبَر.

واللجاء: توجه القلوب إليه تعالى بصدق الفاقة والرجاء، وبصدق اللجاء ١٥ تتزين السرائر.

والانزعاج: تحريك القلب للفؤاد باليقظة من سنة الغفلة.

والوطن: وطن العبد حيث انتهى به الحال، واستقر به القرار.

والاصطفاء، هو الاختيار في سابق العلم.

واللطيفة: إشارة تلوح في الفهم، وتلمع في الذهن، ولا تسعها العبارة ٢٠ لرقة معناها.

والشرب: تلقِّي الأرواح والأسرار الظاهرة لما يرد عليها من الكرامات، فيتنعم بذلك لما يرد على قلبه من أنوار مشاهدة قرب سيده.

والاصطلام: نعت غلبة تَرِدُ على العقول فيستلبها بقوة سلطانه.[1]

والحرية: إشارة إلى نهاية التحقيق بعبودية الله تعالى، لا يملكه شيء سوى الله تعالى. ٥

والوسائط: الأسباب التي بين الله تعالى وبين العبد من أسباب [٣٩ب] الدنيا والآخرة، وسئل بعضهم عن الوسائط فقال: هي على ثلاثة أوجه: مواصلات ومنفصلات ومتصلات؛ فالمواصلات بوادئ الحقّ، والمتصلات إذا عادت، والمنفصلات حظوظ النفس، وقال بعضهم: سبحان من جعل الوسائط رحمة للعارفين ليؤثروه عليها. ١٠

قال الشيخ أبو بكر ابن فورك رحمة الله تعالى عليه:

هذا آخر ما أردنا ذكره من تعريف معاني عبارات القوم التي يختصون باستعمالها، ويستعان بالوقوف على معانيها في تعريف ما يجري في ألفاظهم وعباراتهم وحكاياتهم.

ونسأل الله تعالى حُسن المعونة من عنده والتمسك بحبله إنّه قريب مجيب [٤٠أ] ١٥

---

١ وهو قول الشيخ السراج الطوسي.

المراجع

الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستغربين والمستشرقين، الزركلي خير الدين، بيروت ١٩٩٥.

الأنساب، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعاني، بيروت.

التاريخ الكبير، إسماعيل بن إبراهيم البخاري، بيروت.

تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، بيروت.

تهذيب الكمال في أسماء الرجال، أبو الحجاج يوسف بن زكي المزي، بيروت.

تهذيب تاريخ دمشق، ابن بدران، بيروت.

حلية الأولياء لأبي نعيم الإسفهاني، بيروت.

ديوان الإسلام، شمس الدين أبى المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي، بيروت ١٩٩٠.

الرسالة القشيرية، عبد الكريم القشيري، القاهرة.

الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، بيروت.

السنن، أحمد بن شعيب النسائي، بيروت ١٩٩٢.

السنن، عبد الله بن عبد الرحمن الدرامي السمرقاندي، بيروت ١٩٨٧.

السنن، محمد بن عيسى الترمذي، بيروت.

السنن، محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة، بيروت.

سير أعلام النبلاء، الذهبى شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، بيروت ١٩٩٠.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي أبو الفلاح عبد الحي، بيروت.

شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، بيروت ١٩٩٠.

الصحيح، أبو الحسين القشيري مسلم، بيروت ١٩٨٣.

الصحيح، إسماعيل بن إبراهيم البخاري، إستانبول.

صفة الصفوة، أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، بيروت ١٩٨٦.

طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلي، القاهرة.

طبقات الشافعية الإسنوي جمال الدين عبد الرحيم، بيروت ١٩٩٦.

طبقات الشافعية الكبرى، السبكي تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي.

طبقات الصوفية، أبو عبد الرحمن محمد السلمي، القاهرة.

كشف الخفي ومزيل الإلباس عم اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني، بيروت.

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله، ١٩٤١.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، بيروت.

مختصر تاريخ دمشق، أبو الفضل محمد ابن منظور، بيروت.

المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم، بيروت ١٩٩٢.

المسند الشهاب، القضاعي، بيروت.

المسند، أحمد بن حنبل، بيروت ١٩٩١.